مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (١)، ص ص ٢٣٧-٢٨٤، (محرم ١٤٤١هـ/ سبتمبر ٢٠١٩)

جماليّات السّرد في قصّة زكريّا عليه السلام في القرآن

د. منصور بن عبد العزيز المهوس.
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، كلية التربية بالزلفي- جامعة المجمعة

ملخص البحث: يبتغي هذا البحث رصد جماليّات السّرد في قصّة زكريّا عليه السلام وإجراءات تكوّنها وإنتاجها وفق الآليات السّرديّة الحديثة، وما يتطلبه ذلك من التعرّض لأسلوبها البلاغيّ والإعجازيّ، ممّا يسهم في تميّز القصّة القرآنيّة عن القصّة الأدبيّة في المضمون، من الأهداف والغايات، وفي البناء، من الأحداث والشّخصيّات والزّمان والمكان، كما يسهم في تميّز قصّة زكريّا عليه السلام عن أخواتها من القصص القرآنيّة. وقد أبان البحث عن خصائص سرديّة جماليّة وأسلوبيّة بلاغيّة متفرّدة تتمتّع بها قصّة زكريّا عليه السلام تدل على أنّها تملك مخزونًا جماليًّا لا ينفد، تكشف عن سبق القصّ القرآنيّ في تأسيس كثير من الأطر النّظريّة والتّطبيقيّة للسّرديّة القصصيّة.

الكلمات الافتتاحيّة: جماليّات السّرد، القصّة القرآنيّة، زكريّا عليه السلام، بلاغة السّرد.

المقدّمة:

كوّن النّص القرآنيّ قيمًا جماليّة في غاياته العقائديّة والدّينيّة منذ نزوله، وفي لغته وأسلوبه الّذي تحدّى الأنس والجنّ على أنْ يأتوا بمثله. ومن قيمه الجماليّة قصصه التي صيغت بإتقان وإحكام بالغين، فجاءت علامة من علامات إعجازه في أساليب عرضه للقصص، وفي طرائق تصويره للعناصر السّرديّة، التي تحتوي قيمًا سامقة مكتملة البيان؛ لأنّ منشئها ومبدعها هو الحق ﷻ. فسرْد القصص من أساليب النّص القرآنيّ، وهي متنوّعة في العرض والبناء، كما أنّها متنوّعة في الخصائص والسّمات الفنيّة. لذا تُعدّ القصّة بنية صغرى ضمن بنية كبرى هي السّرديّة القرآنية.

يحاول البحث أنّ يفتح المجال لتقنيات السّرد الحديثة أنْ تتداخل مع القصّة القرآنيّة، وتتعامل معها بناءً على ما تتميّز به القصّة القرآنيّة من طرائق سرديّة حكائيّة فريدة سبقت ظهور مدارس السّرد الحديثة وتنظيراتها المتعدّدة والمربكة أحيانًا، ليتّضح أنّ القصّة القرآنيّة ميدان خصب للتّطبيقات السّرديّة الحديثة في كثير من تنظيراتها، مع الاختلافات في الغايات والأهداف.

وقد وظّف البحثُ السّرديّةَ (Narratologie) التي تبحث في تجلّيات السّرد ومظاهره في: الأسلوب، والبناء، الدّلالة [1]، ليتناول القصّة القرآنيّة بوصفها متنًا حكائيًا وخطابًا في الآن نفسه، من أحداث وشخصيّات وزمان ومكان وصيغة.

بواعث الدّراسة:

-الرّغبة الدّاخلية الذّاتيّة في المكوث مطوّلًا مع هذا النّبع الإعجازيّ الذي لا ينضب، الذي ما فتئ يفترّ للمتأمّل فيه عن درر ربّانيّة، وجواهر إبداعيّة، تذهل العقل وتملأ النّفس، من خلال الصّور البلاغيّة والبيان الإعجازيّ.

-قلّة الدّراسات والكتب التي تناولت السّرد القصصيّ القرآنيّ إذا ما قُرنت بالدّراسات والكتب التي تناولته بلاغيًا أو إعجازيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا، ومن ذلك تناول قصة زكريّاعليه السلام، إذ لم يفرد لها دراسة سرديّة جماليّة - تبعًا لعلم الباحث - تتناولها بمنظور إجرائي من خلال عناصر المتن الحكائي والخطاب السّرديّ، من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وصيغة.

-ما تتمتّع به قصة زكريّاعليه السلام من خصائص سرديّة جماليّة وأسلوبيّة بلاغيّة متفرّدة.

ومن أبرز المعوّقات:

مع أنّ هذه القيمة السّامقة للنّص القرآني التي تحفّز الدّارس على الاقتراب منه لاستكناه ما ينطوي عليه من طاقات إبداعيّة، ومن ذلك جماليّات السّرد القصصيّ، إلا أنّ مَنْ يتعامل معه بحثًا ودراسة لا ريب أنّه سيتعاظم

(١) انظر: عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية، ص ٩.

إشفاقه على نفسه هيبةً وخشيةً من التجاوز غير المقصود، أو القصور البشريّ المؤكّد. ولأنّ التّأويل هو جزء من عمليّة القراءة والتلقّي فإنّ التّأويل لكتاب الله العزيز بغير نقل ولا الدراية عاقبته وخيمة، ذلك أنّ حدود التّأويل في القرآن - عامّة وفي قصصه خاصّة - حدود غيبية استأثر الله بعلمها، مهما أوتِيَ صاحبها من علم ودراية ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٢]. ومن رحمة الله بعباده أنْ يسّر للرّاسخين في العلم وسائل للاقتراب من كتابه العزيز، لذا ومن أجل أنْ أهوّن على نفسي فقد لجأت إلى كتب التّفاسير المعتمدة في تناول مقاصد التّنزيل، من مثل الكشّاف للزّمخشري، والجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ، والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، والبحر المحيط لأبي حيّان، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وروح المعاني للآلوسيّ، ومن الكتب الحديثة، التّحرير والتّنوير لابن عاشور وغيرهم، مستفيدًا من التّوجيهات الموضوعيّة والبلاغيّة التي فتح الله بها على أصحاب هذه التّفاسير أو نقلوها عمّن سبقهم.

وقد جاء البحث - بعد المقدمة - في تمهيد، وأربعة مباحث.

فالتّمهيد، فيه مدخل نظريّ، يتناول موجزًا: السّرد والسّردية، خصائص القصص القرآنيّ، نص قصّة زكريّا عليه السلام في القرآن الكريم.

أمّا المبحث الأوّل فيتناول بناء الأحداث، وقد أوجب البحث له مطلبين: المطلب الأول، أنواع بناء الحدث في قصة زكريّا عليه السلام. المطلب الثّاني، عنصر المفاجأة.

وأمّا المبحث الثّاني فتناول الشّخصيّات، وقد أوجب له البحث ثلاثة مطالب، الأوّل، أنواع الشّخصيّات. الثّاني، وصف الشّخصيّات. الثّالث، الشّخصيّات بوصفها عاملًا سرديًا.

والمبحث الثّالث تناول الزّمن السّردي للقصّة. وكان من متطلبات البحث أنْ يأتي في ثلاثة مطالب:

الأول، المفارقة الزمنيّة (الاسترجاع والاستباق). المطلب الثّاني، المدّة الزّمنيّة: تسريع الزمن (الحذف والخلاصة). المطلب الثّالث، علاقة الشّخصيّة بالزّمن.

أمّا المبحث الرّابع فتناول المكان في قصّة زكريّا عليه السلام، وقد أتى في أربعة مطالب: الأوّل، تحديد المكان ونوعه. المطلب الثّاني، دلالات المكان. المطلب الثّالث، علاقة الشّخصيّة بالمكان. الرابع، ثنائية المكان والزّمان.

ثم خاتمة ترصد أهم النتائج، ثم ثبت أهم المصادر والمراجع.

---

(٢) سورة آل عمران: ٧.

التّمهيد:

أوّلًا: السّرد والسّرديّة.

السّرد لغة: سَرَدَ الحديثَ يسرده سردًا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردًا إذا كان جيّد السّياق[٣] .

وفي الاصطلاح النقدي: السّرد (Narration) الكيفية التي تروى بها القصة[٤]، وهو فعل نقل الحكاية إلى المتلقّي، فالمحكيّ خطابٌ شفويّ أو مكتوب يعرض حكاية. والسّرد هو الفعل الذي يُنتج هذا المحكي [٥]. والحكي يقوم على دعامتين، أولاهما: أنْ يحتوي على قصّة تضم أحداثاً، وثانيتهما: أنْ يعيّن الطّريقة التي تُحكى بها تلك القصّة، وهذه الطّريقة هي السّرد. فالحكاية، القصّة لا تتحدد بمضمونها وحده، ولكن بمضمونها وبالطريقة التي يُقدّم بها ذلك المضمون[٦]. و"للسرد وظائف توصيلية لتنمو الأحداث وتتطور وتتحرك فيه الشخوص مسايرة للسّرد أو مخالفة له. وهنا يتعقد السّرد وتتولد دراميته"[٧].

فالسّرد كيفية معيّنة تّسرد به القصّة، وطريقة يُقدّم بها مضمونها، وهذه الطّريقة وتلك الكيفيّة هي ما تسمّى بالتّقنيات أو الجماليّات التي تختص بها قصّة عن قصّة وتتميز بها قصّة عن أخرى.

وقد تنوّعت الطّرق التي بها تّسرد القصّة وتضفّر، فعند توماشفسكي (Tomashevsky) تُقدّم من خلال أسلوبين: الأسلوب الذّاتيّ، وهو أنّ الشّخصيّة هي التي تسرد الحدث. والأسلوب الموضوعيّ، أنّ السّارد هو الذي يسرد الحدث مخبرًا عن الشّخصيّة وما تفكّر فيه[٨].

أما عند جيرار جنييت (G. Genette) فتُقدّم المادّة السّرديّة من خلال ثلاث خطابات:

الخطاب المسرود، ويتولى السّارد السّرد نيابة عن الشّخصيّات، بتقديم مضمون فعلها. الخطاب المحوّل، وفيه يقوم السّارد بمزج قول الشخصيات بخطابه، وهو السّرد غير المباشر. الخطاب المنقول، وفيه تقوم الشخصيات بتقديم الأقوال بنفسها[٩]. وقد اتّسع مفهوم السّرد الآن وأصبح نظريّةً بمفهوم (السّرديّة) التي هي فرع من الشّعريّة التي تُعنى بنظريّة الأدب[١٠].وتُعنى السّرديّة باستنباط القواعد الدّاخليّة للأجناس الأدبيّة، واستخراج النُظم التي تحكمها

---

(٣) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر (د.ت)، مادة (سَرَدَ).

(٤) د.حميد لحمداني، بنية النص الروائي من منظور النقد الأدبي، ص ٤٥.

(٥) كريستيان أنجليت وجان هيرمان، نظرية السرد، ص ٩٧.

(٦) د.حميد لحمداني، بنية النص الروائي ، ص ٤٥.

(٧) د. محمد عبد المطلب، بلاغة السرد، ص ١١٢.

(٨) انظر: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ص ١٨٩-١٩٠.

(٩) جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ص ١٨٥-١٨٧.

(١٠)انظر: تزفيطان تودوروف، الشعرية، ص ٧٠.

وتوجّه أبنيتها، وتحدّد خصائصها وسماتها. ووُصِفتْ بأنّها نظام نظريّ، غُذّي، وخصّب، بالبحث التّجريبي الإجرائيّ(١١).

وقد انقسمت السّرديّة إلى اتجاهين في تناول النّص السّرديّ، تبعًا لاختلاف نقّادها، اتّجاه يعتني بالجانب الشّكلي التّعبيريّ، بوصفه متنًا حكائيًا خالصًا، ويغض الطرف عن محتوى النّص وأحداثه. ويمثله، بارت (Barthes) وتودروف (Todorov,) وجينيت (Genette). واتّجاه يعتني بالمحتوى كحكاية، ويتعامل معه كمجموعة من المضامين الخطابيّة السّردية، ويغض الطرف عن طرائق تقديم تلك القصّة. ويمثله بروب (Propp,) وغريماس (Greimas) وكلود بريمون (Bremond).

ولصعوبة الفصل بين الاتّجاهين في القراءة والتّناول فقد تعامل البحث مع قصّة زكريّا عليه السلام من النّاحية السّرديّة من خلال المزج بين هذين الاتجاهين بوصفه متنًا حكائيًا وخطابًا أيضًا، من أحداث وشخصيات وزمان ومكان وصيغة؛ رغبةً في تحديد جميع خصائصها الجمالية -إنْ أمكن ذلك وهيهات -. كذلك فإنّ علم السّرديّة يرى أنّ عنصر المكان عنصر ثانويّ فلم يتعامل معه تعامله مع الزّمن أو الشّخصيّات أو الرّؤية، بيد أنّ التّناول النّقديّ المتكامل لابد أن يشمل هذا العنصر للتّتضح بنيوية قصّة زكريّا القرآنيّة(١٢). كذلك فإنّ البحث لم يفرد مبحثًا مستقلًا للصّيغة، وإنّما استعرضها متداخلةً مع جميع العناصر السّرديّة؛ لأنّ في استقلالها صعوبة إجرائيّة، ولتكون القراءة متّسقة ومنسجمة.

ثانيًا: من خصائص القصّة القرآنيّة.

لها خصائص ذاتيّة وفنيّة:

الذاتية: أنّها قصّة هادفة، ذات أهداف دينية وأخلاقية، تتساوق وأهداف العقيدة والتّشريع، وتخاطب العقل والوجدان. كما أنّ مصدر القصّة ومنشؤها هو الحق ﷻ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾(١٣) لذلك فإنّ مصادر القصّة القرآنيّة لا زيف فيها ولا ريب، وأحداثها مستلّة من الواقع والتّاريخ لا الخيال والابتداع. كما أنّها ليست عَرْضًا خالصًا لأحداث التّاريخ، وليس هذا العرض لمجرد التّسلية والمتعة، وإنّما هي عمليّة انتقاء لأحداث معينة تخدم الهدف العام للقصص القرآنيّ، وهو الاعتبار والاتّعاظ، والاقتداء بأهل النّجاة، والابتعاد عن مسلك أهل الهلاك(١٤).

---

(١١) انظر: عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية، ص ٩.

(١٢)وسيأتي الحديث عن ذلك في مبحث المكان.

(١٣)آل عمران: ٦٢.

(١٤) انظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١٦٧؛ فضل عباس، قصص القرآن، ص ٤٥-٤٧.

الفنّيّة: فيها تنوّع في أسلوب العرض طولًا وقصرًا، وأحداثها متّصلة حينًا ومنفصلة حينًا آخر، وتارة مضمّنة مع قصّة أخرى، في صياغة مبدعة تبعًا لغرض القصّة، في مخالفة للسّرد التّاريخيّ الصّارم، لذا فإنّ الغاية ليست الوقائع بذاتها، وليس في تقاطعها مع مدونات تاريخية أخرى، وإنّما في طريقة عرضها التي تكشف عن جوانب الإعجاز اللغوي والخطابي. وهنا تبرز خصّيصة أخرى وهي براعة التصوير للأحداث ولشخصياتها ولزمانها ومكانها، وما يتبع ذلك من إبداع في وسائل ربط الأحداث فيما بينها، خصوصًا إذا كانت القصّة موزّعة على غير سورة(١٥).

ثالثًا: نصّ قصّة زكريّاعليه السلام في القرآن الكريم.

وردت قصّة زكريّاعليه السلام مفرّقة في ثلاث سور، كلّ قصّة جاءت مناسبة لسياق السّورة التي وردت فيها. وسيكون العرض تبعًا لنزول السّور.

١- في سورة مريم:

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرّٗا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾

٢- في سورة الأنبياء:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾

٣- في سورة آل عمران:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾.

---

(١٥) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٧٠؛ فضل عباس، قصص القرآن الكريم: ٤٧-٤٩؛ بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ص ٢٢٣.

المبحث الأوّل: بناء الأحداث.

الحدث: سلسلة من الوقائع المتّصلة تتّسم بالوحدة والدّلالة، وتتلاحق من خلال بداية ووسط ونهاية، في نظام نسقي من الأفعال(١٦). ويُعدّ الحدث من أشمل العناصر السّرديّة المنطوية على علاقات كثيرة مع الشّخصيّة والزّمن واللغة(١٧)، مشكلًا بذلك العمود الفقريّ لها(١٨). وتكمن جماليّة القصّ في ترتيب القاصّ لأحداثه ترتيبًا جديدًا (١٩)، وصولاً إلى الذّروة، إذ يصل تفاعل المتلقّي مع الحدث إلى أقصاه، حينئذ تتوتر أجواء القصّ، منتظرًا القارئ منها حلًا للمشكلة وخاتمة لمقدمتها، "فالحدث يستحوذ على اهتمامنا بتعقّده وحلّه" (٢٠).

وبناء الحدث في الدّرس السّرديّ ثلاثة أنواع:

البناء المتتابع المتسلسل، بناء التّناوب، بناء التّضمين(٢١). ويتوافر في قصّة زكريّا عليه السلام النوعان الأوّل والثّالث.

المطلب الأول: أنواع الأحداث في قصّة زكريّا عليه السلام.

الأول: البناء المتتابع المتسلسل. وفيه تُروى أحداث القصّة جزءًا بعد جزء من دون أنْ تتداخل أحداثها مع أية قصّة أخرى، وهو على ذلك من أكثر الأنساق شيوعًا (٢٢). ويخضع هذا البناء لمنطق السببية في تقديم الأحداث وتطورها..

الثّاني: بناء التّضمين، هو إقحام حكاية داخل حكاية أخرى(٢٣). فهو يقوم على أساس نشوء قصّة أو قصص كثيرة في إطار قصّة قصيرة واحدة(٢٤).

ولأنّ قصّة زكريّا عليه السلام من القصص التي تعدّد حضورها في القصّ القرآنيّ فإنّ بناءها اشتمل على هذين النوعين، كل موطنِ ورود لها أخذ شكلًا بنائيًا مختلفًا؛ ففي سورة مريم كان بناؤها متتابعًا، وفي سورة آل عمران أتى بناؤها مضمّنًا في قصّة مريم وابنها المسيح - عليهما السلام -

---

(١٦) انظر: جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ١٩.

(١٧) انظر: عبد الله إبراهيم، المتخيل السردي، ص ١٧.

(١٨) انظر: يمنى العيد، تقنيات السرد في ضوء المنهج البنيوي، ص ٢٧.

(١٩) انظر: فورستر، أركان الرواية، ص ١٠٥.

(٢٠) أودين موير، بناء الرواية. ص ١٦.

(٢١) انظر: تودوروف، الشعرية، ص ٧٠.

(٢٢) انظر: شجاع مسلم العاني، البناء الفني في الرواية العربية في العراق، ص ٨.

(٢٣) لطفي زيتوني، معجم مصطلحات الرواية، ص ٥٧.

(٢٤) شجاع مسلم العاني، البناء الفني في الرواية العربية في العراق، ص١١.

وهذا التنوّع في بناء قصّته ﷺ هو تنوّع في العرض، وكل عرض يأتي متمّمًا لما ذُكر منها في موطن آخر، تبعًا لما يقضيه سياق القصّة، وموضوع السّورة الإطارية للقصّة. فالسّياق هو الذي يحدّد القدْر الذي يُعرض منها في كلّ موطن، كما يحدّد طريقة العرض والأداء بما يحقّق التّناسق والجمال الفنيّ(٢٥).

أولًا: البناء المتتابع. في سورة مريم أتى الحدث في مفتتح السّورة، بعد استهلال معجز بحروف مقطّعة، يومئ إلى غرابة القصص والأحداث التي ستأتي بعده، ومنها قصّة زكريّاﷺ وقصّة مريم وابنها - عليهما السلام - يبدأ السّرد بنمطين سرديين تقوم بهما الحركة السّرديّة، وهما المجمل والمشهد، فالمجمل انطلق بعذوبة سردية من لدن العزيز الحكيم مخاطبًا نبيه ﷺ، في خطاب مخصوص جاء في سياق العموم(٢٦)، وصيغته أتت بالخطاب المسرود، أعلن هذا الخطاب عن مرتكز القصّة وغايتها وهي بيان (رحمة الله) على عبده زكريّاﷺ، وسرْد خبره. جاءت البداية هادئة، إذ نادى ربه نداء خفيًا، ثم ينتقل السّرد إلى المشهد عندما يستقل زكريّاﷺ بسرد قصّته من خلال السّرد الذّاتيّ أو المنقول المقدّم بتقنية (المناجاة الذاتية) الذي استغرق ثلاث آيات(٤ -٦)، يبث فيها زكريّاﷺ حزنه وألمه وما أحدثه الكبر فيه، وعن حال زوجته، ثم يعقبها ببيان رجائه وأمله، وهو الذّرية التي ترثه، ثم تتحوّل حركيّة السّرد من المشهد إلى الحوار بين الله ﷻ وعبده زكريّاﷺ، الذي استغرق ثلاث آيات (٧ -٩)، وبه ترتفع وتيرة الحدث؛ فالحق ﷻ يُشرّف زكريّا بخطابه له بإخباره خبر الذرية، فيتوّتر المشهد ويزداد تصاعد الحدث نحو الأزمة السّرديّة بتعجّبه واستغرابه ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ الذي يجسّد ذروة الحدث، مانحًا السّرد إيقاعًا يشدّ المتلقّي إليه ويؤثر به تأثيرًا نفسيًا. وبعد أنْ ركن زكريّاﷺ إلى وعد الله بالذّرية، وأعطاه الآية عندها يتوقّف السّرد، لكنّ الحدث يتحرك من جديد، مجددًا الإيقاع السّرديّ؛ إذ يطلعنا الرّب ﷻ على خبر يحيىﷺ الـمُـقدَّم من خلال الأمر المباشر له بأنْ يأخذ الكتاب بقوّة، سابغًا عليه حنانه وتزكيته، متفضّلًا عليه بمنحه السّلام الأبديّ.

فهذا البناء انتحى المنحى التّسلسليّ المتتابع؛ إذ سارت الأحداث بحركيّة متواصلة متدفّقة بنسق صاعد من البداية حتّى النّهاية دون تعثّر أو توقّف أو تقطيع.

وقد أبان هذا التسلسل التّتابعي للأحداث عن نوعٍ من أنواع أساليب عرض القصّة القرآنيّة، وهو البدء بتمهيد مقتضب وتقديم ينبّه إلى بداية العرض، ثم تتدفّق القصّة متحدّثة عن نفسها من خلال الشّخصيّة الرّئيسة لها(٢٧).

---

(٢٥) انظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ص ٩٣.

(٢٦) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص ٨٧.

(٢٧) من أساليب العرض الأخرى للقصص في القرآن: أنْ تبدأ القصة بمجمل مبهم ثم يتبعه تفصيل يكشف هذا المبهم رويدًا رويدًا حتى النهاية، كقصة يوسف. أنْ تبدأ القصة بمجمل ثم يتبعه تفصيل كقصة أصحاب الكهف. أنْ تبدأ القصة مباشرة دون تمهيد يجمل القصة، كقصة مريم في سورة مريم. أنْ تستهل القصة بالنهاية وبموطن العبرة منها ثم العودة لذكر كيف حدث ذلك، كقصة موسى مع فرعون في سورة القصص. أنْ تتضمن القصة

ثانيًا: بناء التّضمين. وذلك في قصّة آل عمران، إذ أتى من نوع تضمين (القصة المضمّنة الدّاخليّة)[٢٨]إذ اختلف البناء ونوع العرض؛ فقصّة زكريّا عليه السلام في سورة مريم قصّة مستقلة افتتحت بها السّورة، ثم أتت قصّة مريم - عليها السلام -، أمّا في سورة آل عمران فقد أتت قصّة زكريّا عليه السلام مضمّنة في قصة مريم، على هيئة مقطع قصصي[٢٩] متداخل مع قصّة مريم، ثم ينتهي المقطع وتستمر قصّة مريم. فقصّة مريم تحوّلت إلى قصة إطارية[٣٠] لقصة زكريّا عليه السلام في هذه السّورة. وتحوّلت قصّة زكريّا عليه السلام إلى فرع قصصي، ووحدة سرديّة مركّبة من مجموعة أحداث داخل القصّة الأمّ؛ وذلك تبعًا للسياق ولمغزى السّورة ولموطن العبرة منها.

ففي هذا البناء توقف الزّمن الصّاعد لسرد قصّة مريم أمام ظهور قصّة زكريّا عليه السلام مع مريم - عليها السلام – الذي بدأ من الخطاب الإلهيّ المسرود ﴿وَكَفَّلَهَا زكريّا﴾، فهو ظهور وظيفيّ خاصّ بها من خلال اسم الشّخصيّة زكريّا عليه السلام، لذا عدَّ أحد الباحثين" أنّ كلّ شخصيّة جديدة تعني قصّة جديدة "[٣١]. ظهور يعلن به الخطاب دخول زكريّا مسرح الأفعال السّردية، فتبدأ قصّته، متّخذة منعطفًا جديدًا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ فالدّخول المتكّرر ولّد رابطة سببية منطقيّة، وهي رابطة فنية تدفع الحدث نحو النّمو والتّطور، فيؤدي السّبب إلى نتيجة، وهي الدّعاء، ثم الإجابة ثم البشارة ثم الآية، بعدها يتوقّف السّرد مقفلًا على قصّته ليعود إلى القصّة الأمّ الإطارية. وهنا نلحظ أنّ العلاقة بين القصّة المضمّنة والقصّة الأمّ علاقة متّصلة وليس منقطعة؛ فقد اشتركت شخصيّة زكريّا عليه السلام من القصّة ذات المستوى الثاني مع شخصية مريم - عليها السلام - من القصّة ذات المستوى الأول في توثيق الارتباط بين القصّتين، فقصّة زكريّا عليه السلام أتت مقدّمة موضوعية بين يديّ قصّة المسيح عليه السلام وولادته من غير أب، ذلك أنّ النفوس لما آنست بولد من بين شيخين كبيرين لا يولد لهما عادة؛ سهل عليها التّصديق بولادة ولد من غير أب[٣٢].كذلك الشّخصيّة الثّانية في قصّة زكريّا عليه السلام (يحيى عليه السلام) من الشّخصيّات الواصلة بين القصّتين،

قصة أخرى، وبعد الانتهاء من القصة المضمنة يعود السرد إلى القصة الإطارية الأم، كقصة زكريا مع قصة مريم في سورة آل عمران. وسيأتي تفصيل لهذا الأسلوب الأخير بعد قليل.

(٢٨) انظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ص ٣٣٤. والثاني القصّة المضمّنة الخارجية، وهي قصّة خارجيّة لا علاقة لها بالقصّة ولا بأحداثها.

(٢٩) المقطع، هو جمل قصصيّة تنتظم في حلقات فتكوّن وحدة تستدعي منطقيًا ملفوظات مقطع سرديّ آخر. انظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ص٤١٢.

(٣٠) القصة الإطار هي القصة التي تتضمن قصة وأكثر. وقد سميت إطارًا لأنها تؤطر غيرها بحضورها في موطنين على الأقل، هما البداية والنهاية كما في حكايات (ألف ليلة وليلة). انظر: معجم السرديات، ص ٣٣٤.

(٣١) انظر: حسين الواد، البنية القصصيّة في رسالة الغفران، ص ٨٥.

(٣٢) ابن القيّم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (١٦٤/١).

وذلك من خلال البشارة بعيسى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فكانت بشارة الله لزكريّا بيحيى متضمّنة البشارة بـ(عيسى ﷺ) والتّصديق له بالرّسالة(٣٣).وبذلك نكون أمام سورة -آل عمران - لها صورة كليّة متكوّنة من مجموع قصص، وصور فرعيّة متكوّنة من كل قصّة مفردة في الوقت نفسه. وهذه القصص الفرعيّة تساند السّورة الإطار من خلال الوظيفة المرومة منها. وبذا يكون التّفريع الحكائيّ مسوّغًا للتّعدّد الدّلاليّ، وتوالد الأفكار والمضامين عبر الأصول والفروع(٣٤). وهذا التّفريع الحكائي(٣٥)، في قصة مريم - عليها السلام - في هذه السّورة، أتى داعمًا لشرط مؤثّر من شروطه لدى تودوروف(,Todorov)، وهو أنّ ظهور أيّ قصّة جديدة مرتبط بظهور شخصيّة جديدة في فضاء السّرد، وأنّ الحكاية الجديدة يتم تضمينها مع الحكاية السّابقة لها (٣٦).

وبذلك يكون هذا التضمين حقق غايات جماليّة وبنائيّة:

منها، تغيير مسار أحداث القصّة الأمّ، بالانتقال من المستوى الأوّل للقصّ إلى المستوى الثّاني، من البناء المتتابع للقصّة الإطار إلى البناء التّضميني، وفي هذا تشويق للمتلقّي؛ إذ هو تعليقٌ للقصّة الأوّلى وإرجاءُ لنهايتها. وهي وظيفة جماليّة تؤثّر في المتلقّي لينجذب لهذه الحكايات المتواليات. ومنها، أنّ قصّة زكريّا ﷺ المضمَّنة أشارت إلى ما ستؤول إليه أحداث القصّة الأمّ.

ومنها، أنّ في هذا التفريع تكثيف للدّلالات الدّينية والعقديّة والتربويّة للقصّة الأمّ. وهي وظيفة موضوعيّة بمثابة برهان يكرّس حقيقة واحدة، يسعى الخطاب الرّبانيّ إلى تعميقها في ذات المتلقّي بغير أسلوب وبغير طريقة، وهو يساوق ومقاصد السّورتين ثم القرآن الكريم.

ومع اختلاف نوع البناء في السّورتين إلا أنّ كلَّ واحدٍ أتى مكمّلًا الآخر، في توافق بديع، وتكامل معجز:

في سورة مريم كانت غرّة السّرد المناجاة الذاتية، وفي سورة آل عمران كانت غرّته بيان علة هذه المناجاة والمحرك لها؛ لأنّ السورة تحدثت عن آل عمران، وبيان ما اختصوا به وبيان فضل الله عليهم، بل سمّيت السورة باسمهم(٣٧). وفي سورة مريم أتت القصّة من الوسط تقريبًا؛ لذا قام بناؤها على المناجاة الذّاتيّة والخطاب المنقول بلسان الشّخصيّة زكريّاﷺ. بينما أوجزت آل عمران في ذلك. وفي النّهاية اخْتِتمت في سورة مريم بالحديث عن مآل يحيىﷺ، أمّا في آل عمران فقد كانت النّهاية والنهاية بإخبار الله لزكريّا بالآية، وبأمره له أنْ يسبّح الله بالعشيّ

---

(٣٣) وهو قول أكثر المفسّرين. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٤/٤).

(٣٤) انظر: رينيه ويليك، نظرية الادب، ص٢٨٩.

٣٥) هذه الظاهرة السردية التنظيمية لها أكثر من مصطلح لدى النقاد، من ذلك (توليد الحكايات، التفريع الحكائي، التناسل الحكائي، التبادل السردي، الدوائر المتداخلة). انظر: معجم السرديات، د.محمد القاضي وآخرون، ص ٢٣١ .

٣٦) انظر: تودوروف، مفهوم الأدب، ص ١٢٢.

(٣٧) انظر: فضل عباس، قصص القرآن الكريم، ص ٦٨٠.

والإبكار[٣٨].فقصّة زكريّا - في سورة مريم - سبقت قصّة مريم والمسيح - عليهما السلام – فأتت كالمقدِّمة لها والتّوطئة قبلها، ومثلها كذلك في سورة الأنبياء، ثم قرن بينهما في سياقٍ واحدٍ في سورة آل عمران. وهذا ينفي أنْ يكون في القصّة في السورتين تكرار خالص، بل ثمّة عناصر سرديّة تَضْمر في قصّة وتبرز في القصّة الأخرى. وعلى هذا فإنّ قضية التّكرار ليست واردة، وإنّما هو تكامل والتئام لا يخلُّ بنظام السّرد ولا بمتطلبات الجماليّة، في تناسق بديع بين القصّة والمقام الذي سيقت له. وبذلك يأتي تعدّد حضورها في القرآن تنوّعًا لأغراض بنائيّة وبلاغيّة وخطابيّة، وهذا من خصائص القصة القرآنية؛ إذ يقع التكرار في بعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضوع العبرة منها، أمّا جسم القصّة كله فلا يكرر إلا نادرًا ولمناسبات خاصة في السّياق [٣٩]. فالمقاصد التي يوحي بها السّياق في كلّ من السّورتين هي التي توجّه أسلوب العرض ونوعيّة البناء، وتتحكم في ترتيب الأحداث، وتسلط الضوء على العنصر المراد إبرازه[٤٠]، فأيّ قصّة لا يمكن أنْ تُعاد كما هي بألفاظها وجملها وتركيبها الخطابيّ، فهو حضور متجدّد ومتنوّع يحقق كثيرًا من الغايات الخطابيّة والبنائيّة، ومن أهم تلك الغايات تقرير الحقائق، إذ هو أهم فائدة للتّكرار[٤١]. وذلك تبعًا لحال المتلقّين وتنوّع أحوالهم وفروقهم في الفهم والإدراك، فهي ترد غير مرة للتّذكير ولتجديد نشاط السامع، وفقًا لما يتطلّبه السّياق. وهذا التّنوع هو مظهر من مظاهر الإعجاز وقت نزول القرآن إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(٣٨) وهناك فروق أخرى بين القصتين تتكامل بها القصّة؛ في الشّخصيّة، والرؤية السردية، والزّمان والمكان. وسأعرض لذلك في موضعه من هذا البحث بإذن الله.

(٣٩) انظر: سيد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن، ص ١٥٦.

(٤٠) انظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ص ١٣٩.

(٤١) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص١٠.

المطلب الثّاني: عنصر المفاجأة.

عنصر المفاجأة عنصر فنّيّ جماليّ، يحرّك الأحداث، وينقلها من حال إلى حال، ويصوّر ما يعتمل في ذات الشّخصيّة لحظة وقوع المفاجأة، ممّا يسترعي عناية المتلقّي ويشوّقه. فمصطلح المفاجأة يشير إلى ترقّب القرّاء لما ستكون عليه نهاية الأحداث، رواية أو قصّة أو تمثيليّة، أو لأحداث وقعت دون سابق تهنيد. وهي صفة من صفات التّوتّر تحتفظ باهتمام الجمهور؛ لأنّها تنطوي على سر أو أسرار، تجعله يتساءل: ما الذي سيحدث بعد ذلك"[٤٢]، أو ما سبب حدوث ذلك. وتوظّف القصّة القرآنيّة هذا العنصر بفاعليّة محكمة، تسير وفقاً للتّدبير الرّبانيّ نحو غاية معيّنة، تتحقّق بها العبرة الكبرى، ولذلك فلا عجب أنْ يتدّخل الخطاب الإلهيّ في تسيير الكثير من حوادثها وسوقها باتجاه معيّن يخدم المغزى المراد من القصّة.

من ذلك ما نشاهده في قصة زكريّاﷺ وهي مفاجأة ذات سرّ غير غامض، وعقدة بسيطة غير معقّدة ولا مركّبة. وهذه المفاجأة في قصة زكريّاﷺ أتت على نوعين: أمر لا تعلم به الشّخصية الرّئيسة ولا المتلقي حتى إبّان انكشافه، ونوع تعلمه الشّخصية، ويخفى على المتلقّي حتى إبّان انكشافه.

والمفاجأة من النّوع الأوّل أتت في ثلاثة مواضع:

المفاجأة الأولى لزكريّاﷺ وللمتلقي معًا؛ إذ علم بها زكريّاﷺ والمتلقّي في آنٍ واحد، وقد أتت في منطلق قصّة زكريّاﷺ في آل عمران ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾. المفاجأة أسرته وجعلته يتأمّل هذا المشهد، وتدل (كلما) على تكرار فعل الدّخول، فيتكرر معه مشهد المفاجأة، ممّا دفعه لأنْ يسعى في كشف هذا الأمر غير المعتاد، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف[٤٣]، وتظهر المفاجأة بسؤاله لها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ تعجَّبَ من ذلك وهو نبيٌّ يوحى إليه. فبهذه المفاجأة انفتح السّرد على قصّة زكريّاﷺ؛ ممّا منح السّرد إيقاعًا مميزًا ساهم في استمالة المتلقي للانتقال من قصّة مريم إلى قصّة زكريّاﷺ بطريقة جماليّة متفرّدة.

المفاجأة الثّانية: انبعثت من رغبته في كشف سرّ هذا الرّزق، إذ قالت مريم ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ "فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه في إجابة دعوته"[٤٤]، هنا ودون تأخير ﴿دَعَا زكريّا رَبَّهُ﴾ لينشأ في الحدث تطوّر جديد، يشارك في نمو الحدث، وليكون لبنة من لبناته المؤثّرة والرّئيسة.

المفاجأة الثّالثة: وهي كسابقتها كانت مفاجأة لزكريّاﷺ وللمتلقيّ معًا، إذ علم بها زكريّا والمتلقي في الآن نفسه، وهي تبشير الله له بالولد، إذ اشترك زكريّاﷺ المخاطَب والمتلقيّ في تلقّي هذه البشارة دون علم مسبق، وإنّما هو

---

(٤٢) إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، ص٨٨.

(٤٣) انظر: الزمخشري، الكشاف (٣٥٨/١).

(٤٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٢).

انتظار متهدّج ورجاء عريض، بعدها أفاق زكريّاعليه السلام على هذا الخبر، وعلى تلك المنة الربانية المباشرة، التي تبيّنها محذوف مقول القول في كلا السورتين في الخطاب الرّبانيّ لزكريّاعليه السلام. وتتجلّى شدّة المفاجأة من خلال ما يلي:

أ - تساءل زكريّا تساؤل المتعجّب لا المستبعد: أنّى يكون ذلك، أيْ، كيف أو من أيْن؟، وجميع القوانين الطبيعية لا توافق ذلك؛ شيخ كبير بلغ من الكبر عتيًا، وامرأته عاقر! فتلهّفت نفسه البشريّة، وتشوّقت إلى كيفية وقوع هذا الأمر بالقياس إلى مألوف البشر، مع قوّة يقينه بقدرة الله، وأنّ السّبب الباعث على تضرّعه له بطلب الولد كان بعد رؤيته لقدرة الله في إنزال الرّزق على مريم، تعجب" استعظامًا لقدرة الله تعالى، وتعجبًا منها، واعتدادًا بنعمه تعالى عليه في ذلك"[٤٥] لا استبعادًا وشكّا في صدق الوعد[٤٦].

ب -لذلك أتى السّؤال التعجّبيّ متحدًا في السّورتين ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ كما اتفقتا في علّة تعجّبه، هو كبير، وامرأته عاقر.

ج -أيضًا يتكّشف عِظَم المفاجأة في إشارته إلى علّة امرأته بالفعل الماضي، وذلك مباشرة بعد السّؤال التعجّبي ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ ليؤكّد أنّ عقمها ملازم لها، وليس حادث بسبب الكبر، لذا كان إيراده بلفظ الماضي أقوى[٤٧].

د -كذلك يظهر جانب من جوانب المفاجأة في اختلاف إسناد العلّة الأصليّة إلى ذات زكريّاعليه السلام، ففي سورة مريم أشار أنّ الفاعل في الكبر هو ذاته ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ﴾ وذلك على الحقيقة، أمّا في سورة آل عمران فكان الفاعل هو الكبر، على المجاز (وقد بلغني الكبر)؛ إذ أسند البلوغ إلى الكبر، كأنّ الكبر طالب له، وهو المطلوب، أيْ: أدركني الكبر وأثّر فيّ[٤٨]. بيد أنّه لم يبيّن في السّورة مقدار ما بلغه زكريّا من الكبر؛ لأنّه سبق بيانه في سورة مريم، وهو (عتيًا).

هـ -أيضًا الجمع بين المضارع والماضي في قوله تعالى ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ وذلك بالخطاب الذّاتيّ المنقول لزكريّاعليه السلام ليبرز وقع المفاجأة عليه بتفاعل الأزمنة مع مشاعره، ففي الماضي والحاضر امرأته عاقر، وهو الآن في مرحلة العتّيّ والضّعف، بيد أنّ المستقبل القريب المرتقب ينبئ عن حدوث معجزة فيها الأمل والبقاء والاستمرار، فهو تفاعل نفسيّ زمنيّ جسّده هذا التقابل والتّطابق النفسيّ الذي أنشأته هذه المفاجأة. وفي هذا الإفضاء الاندهاشي من زكريّاعليه السلام ومعه المتلقّي يبلغ الحدث ذروته في التّوتر، الذي هو

---

(٤٥) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٢٥٦/٥).

(٤٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩٣/٣).

(٤٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١٦).

(٤٨) الآلوسي، روح المعاني (١٤٣/٢).

أعلى نقطة في التكثيف المتصاعد للحدث[٤٩]، وتتحقق أزمته الدرامية، فيترقّب السامع ماذا سيحدث بعد ذلك. "ويُعدّ توليد المفاجأة ذا أثر على نحو خاص عندما يكون مؤسسًا جيّدًا على ما حدث من قبل"[٥٠] ، عندها تبدأ العقدة بأول خيط لانزياحها بحضور خطاب الحق ﷻ متّحدًا وملتئمًا في السّورتين ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾، أيْ: الأمر كذلك، تصديقًا وتقريرًا للأمر المتعجب منه" لأنّ مَنْشأ التّعجب يثير ترقّب السّامع أنْ يعرف ما يبطل ذلك التّعجب المقرر"[٥١]. لقد استدعى الاستفهام التعجبي لزكريّاعليه السلام - الحاضن لعنصر المفاجأة - بعدًا دلاليًا؛ فبعد أنْ قرّر الله لبعده هذا الأمر العجيب، أردفه بمقول آخر في سورة مريم ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ ليكون السّائل نفسه هو الشّاهد على قدرة الله من قبل، فأعاده ذلك إخباريًا إلى عظيم قدرة الله، ثم الاستدلال من نفسه هو، وهي حقيقته الأولى؛ بأنّك يا زكريّا لم تكن شيئًا فلماذا العجب من أنْ أخلق شيئًا من كائن موجود من قبل. وفي ذلك إقناع عقليّ وتأثير وجداني لتمكين حقيقية الإيمان بالبعث والنّشور في عقل زكريّاعليه السلام وقلبه، ثمّ من بعده المتلقّي العام؛ لذا فقد تكرّر هذا الإيقاع على مرحلتين، الأولى في سورة مريم ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، والثانية في آل عمران ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ وهذه كأنّها تذييل يختم به الحجّة المقنعة [٥٢].

النّوع الثّاني للمفاجأة: المفاجأة للمتلقّي، وذلك في سورة مريم، فبعد تأمّل المتلقّي لنفحات رحمة الله على زكريّاعليه السلام، وبعد انفراج أزمته يتوقّف السّرد، لينتقل إلى وحدة سرديّة جديدة، بينها وبين ما سبقها بون زمني شاسع، إذ يتجلّى السّرد معلنًا عن شخصيّة يحيىعليه السلام، المبشَّر به، وقد بلغ سن التكليف وغاية الرشد، وزمن الوحي.

وتظهر هذه المفاجأة بواسطة هذا الالتفات الأسلوبيّ، الذي افتتح المقطع الجديد بواسطة الخطاب المسرود من لدنه ﷻ ليحيىعليه السلام، وفي ذلك تشريف واصطفاء ليحيى. ثم بعد ذلك العدول عن هذا الخطاب إلى الغيبة مخبرًا ﷻ أنّه هو الذي آتاه الحكم صبيًا، وما تبعه من منن وعطايا، فاجتمع في جملة واحدة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ خطابان، متكلم وغيبة، وفي ذلك تأمّل للمتلقيّ وتأثير بوجدانه يسهمان في نشؤ المفاجأة لديه. وبذلك كلّه تحدث سرعة الانتقال من البشارة إلى ما آلت إليه، وهو تحقّقها بصلاح يحيىعليه السلام وسياداته والوحي إليه، ممّا أحدث نوعًا من الإيقاع السّردي الذي

---

(٤٩) انظر: جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ١٤٨.

(٥٠) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ١٧.

(٥١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦/ ١٥).

(٥٢) وهنا تظهر جماليّة اختلاف الخبر في آل عمران عن قصّة عيسى في السّورة نفسها، فكان الخطاب لزكريّاعليه السلام (قال كذلك الله يفعل ما يشاء)، أمّا خطابه لمريم في عيسىعليه السلام (كذلك الله يخلق ما يشاء)، إذ أمْرُ زكريّاعليه السلام داخل في الممكن عادة، وإنْ قل، بينما في قصّة مريم فإنّه من غير الممكن، وهو وجود ولد من غير والد، فهو إبداع وخلق من غير سبب عادي. انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢/٢٦٦).

يخدم مضمون القصّة. كذلك إشراك المتلقّي في ملء هذه الفجوة الزّمنيّة وما حدث فيها، من ولادة يحيى حتّى الوحي إليه. فعنصر المفاجأة في بداية قصة زكريّا - في آل عمران - كانت الانطلاقة القوّية للقصّة، وفي نهاية القصّة - في سورة مريم - استكمل بناء الحدث، وجعلها تصل إلى النّهاية وهي في أوج إثارتها وتماسكها.

المبحث الثاني: الشّخصيّات في قصّة زكريّا عليه السلام.

تتبوّأ الشّخصيّة في السّرديّات أهمّيّة كبيرة، وتضطلع بموقع متميّز، انطلاقًا من كونها "العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافّة العناصر الشّكليّة الأخرى"(٥٣) فهي القلب النّابض للسّرد. فالشّخصيّة في العمل السّرديّ من الأركان الأساسيّة التي يرتكز عليها، وهي من دعامات العمل القصصيّ(٥٤)، وعدّها تودورف(Todorov,) "موضوع القضيّة السّرديّة"(٥٥).

لذا اعتنى النّقد السّرديّ بها، وأكثر النّقّاد قديمًا وحديثًا، عربًا وغير عرب، في الحديث عن أهمّيتها وأنواعها، تبعًا لدورها في الحكاية. فأتت أنواعها على شكل متقابلات: رئيسة وثانويّة، نامية وثابتة، مدوّرة وسطحيّة، شخصيّة إيجابيّة وسلبيّة. ومن أنواعها، الشّخصيّة المرجعيّة والشّخصيّة المتكرّرة(٥٦).وهذه الأنواع فيها تداخل وتقارب (٥٧). والشّخصيّة النّامية هي المتطوّرة داخل القصّة من موقف إلى آخر، ويظهر لها في كلّ موقف تصرّف جديد يكشف لنا عن جانب جديد منها(٥٨).والشّخصيّة المرجعيّة، هي التي تحيل إلى معنى ثابت في المرجعيّة الثّقافيّة، وهي تعمل على تثبيت هذا المعنى، وذلك بإحالتها على النّص الكبير الذي تمثّله الأيدلوجيا والثّقافة"(٥٩). فالشّخصيّة المرجعيّة ذات حمولة ثقافيّة موضوعيّة لها جذورها الواقعيّة وخلفيتها الثقافيّة. والشّخصيّة المتكرّرة، هي شخصيّة ذات وظيفة تنظيمية لاحمة أساسًا، أيْ أنها علامات مقوّية لذاكرة القارئ، من مثل الشّخصيّات المبشّرة بخير، أو تلك التي تُذيع وتؤوّل الدلائل (٦٠). والشّخصيّة المسطّحة، هي المكتملة التي تظهر في القصّة دون أنْ يحدث في تكوينها أيّ تغيير(٦١).فهي شخصيّة واضحة الملامح من أول ظهور لها، ممّا يساعد المتلقّي على التعرّف عليها دفعة واحدة. كما تحدّث النّقّاد عن رسم أبعادها الداخليّة والخارجيّة، وبعدها الاجتماعيّ والثقافيّ والنفسيّ، وأيضًا تطرّقوا لأساليب تقديمها وتصويرها. كما تعدّدت آراؤهم النّقديّة عنها وعن علاقتها بالعناصر الفنّية الأخرى

---

(٥٣) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص٢٠٢.

(٥٤) جيرار جينيت، عودة إلى خطاب الحكاية، ص ١٧٩

(٥٥) تودوروف، مفاهيم سردية، ص ٧٣.

(٥٦) فالإيجابيّة والمدوّرة والناميّة تكاد تعني شيئًا واحدًا، والشّخصيّة السّلبيّة والثّابتة والمسطّحة أيضًا بمعنى واحد. انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص ١٠٢.

(٥٧) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٥٨) انظر: د. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص ١١٧.

(٥٩)انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٢١٦.

(٦٠)انظر: المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٦١)انظر: عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص ١١٧.

من حدث وزمان ومكان ورؤية سرديّة(٦٢). وتُقدَّم الشّخصيّة في العمل السّرديّ من خلال طريقتين، الطّريقة التحليليّة والطّريقة التمثيليّة. والطّريقة التحليليّة هي التي يقدّمها سارد من الخارج، أمّا الطّريقة التمثيليّة فهي التي يقدّمها سارد من الداخل، أيْ الشخصية تصف نفسها بلسانها، وتكشف جوهرها وأفراحها وأحزانها ورغباتها ومخاوفها(٦٣).والطّريقة الأولى تُوصف بأنّ أسلوبها أسلوب موضوعيّ، أو خطاب مسرود. والثّانية، توصف بأنّ أسلوبها أسلوب ذاتيّ، أو خطاب منقول(٦٤).

المطلب الأوّل: أنواع الشّخصيّات في قصة زكريّا عليه السلام ووصفها.

يتناول هذا المطلب الشّخصيّات الواقعيّة البشريّة: زكريّا عليه السلام، امرأته، يحيى عليه السلام.

أوّلًا: الشّخصيّة الرّئيسة: زكريّا عليه السلام، وقد أتت رئيسة ونامية ومتكرّرة ومرجعيّة.

فهي رئيسة؛ لأنّها امتلكت صفات الشّخصيّة الرّئيسة. فهي محور القصّة، وهي التي تقود الفعل السّردي وتدفعه إلى الأمام، وهي البوصلة التي توجه الحدث وفق سياق محكم. كما أنّها شخصيّة مرجعيّة، إذ هي الشّخصيّة الحاملة لمغزى القصّة، وهي بيان عظيم رحمة الله، كما أنّها متطوّرة مع تطور الحدث، بل يتطوّر الحدث بها، وتنشأ العقدة، ومن خلالها تنجلي الأزمة، كما أنّها ذات استقلاليّة في حركتها داخل القصّة، وفي التعبير عن رأيها وما تحتاجه وما ترغبه وما تخافه. وهي شخصيّة متكرّرة؛ إذ جسّدت فعل الخير، وحسن الإقبال على الله، وقد تكرّر فعلها هذا من بداية القصّة حتى نهايتها. وفي المجمل فإنّ شخصيّة زكريّا عليه السلام أسّ القصّة وكنهها وجسمها والمحركة لأحداثها، ومن خلالها تتجسّد العبرة والغاية.

ومن الملاحظ أنّ الحدث في قصّة زكريّا عليه السلام متساو في الأهمية مع الشّخصيّة، فلم يطغ حيّز الحدث على حيّز الشّخصيّة، ولم يبرز عنصر الشّخصيّة ويضمر عنصر الحدث، كما في بعض القصص الأخرى للقرآن. فالحدث متعاضد والشّخصيّة في إبراز المعزى الموضوعيّ للقصّة. فهي من نوع الشّخصيّة المكثّفة، وهو مصطلح تودوروف(Todorov,)(٦٥).

أمّا أبعادها فقد تجلّت شخصيّة زكريّا عليه السلام رويدًا رويدًا من خلال السّياق في جميع السّور:

---

(٦٢) انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٢١٧.

(٦٣) انظر: يوسف نجم، فن القصة، ص٨٠.

(٦٤) انظر: ص ٦ من هذا البحث.

(٦٥) انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ١٠٠.

١ - الاسم، إنّ من أهمّ علامات الشّخصيّة التي تميّزها في المشهد السّرديّ هي علامتان: الاسم والفردانية(٦٦). فالاسم أمير الدّوال، كما يقول بارت (Barthes) (٦٧).

وقد قدّم الخطاب الرّبانيّ - بالسّرد الموضوعيّ أو الخطاب المسرود للنّبيﷺ - اسم زكريّاعليه السلام بعد مرحلة الاستهلال العجيب من خلال الحروف المقطعة في سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زكريّا﴾ ويتّفق المفسّرون والنّقاد السّرديون أنّ الاسم تمييز وتفضيل للشّخصيّة، وبإطلاق اسم لها يشير إلى عناية السّارد بهذه الشّخصيّة، وأنّه يميّزها عن غيرها.

وهو اسم أعجمي، وقرئ (زكريّاء) بالمدّ والنّصب، وقرأ حفص وحمزة والكسائيّ (زكريّا) بغير مدّ ولا همزة، ومدّهُ الباقُون وهمزوه (٦٨).

٢ -وقبل التّسمية مهّد الخطاب المسرود ببيان العبرة من سرد قصّة زكريّاعليه السلام، وهي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ فالرحمة تاج هذه السّورة ومنشؤها وظلها الرّحيم، وتشير إلى غايتين: أنّ إجابة الله لدعاء زكريّاعليه السلام فضل من الله ورحمة به، وأنّ كلّ من التجأ إليه من عباده فإنّ الله سميع الدّعاء، والثّانية، أنّ زكريّاعليه السلام نفسه رحمة لقومه، يتلقّى من الله ما فيه هدايتهم ومنفعتهم في الدنيا والآخرة، وفي ذلك خصّيصة أوليّة تُبين عن شخصيّة زكريّاعليه السلام. وفي توجيه الخطاب إلى المتلقّي، وهو النّبيﷺ فيه إشارة إلى أنّ رحمة الله التي منحها لزكريّا تمتدّ لتكون رحمة للنّبي ﷺولأمّته؛ لأنّ طريق زكريّاعليه السلام في سنن الدّعاء والابتهال الخالص لله ﷻ صالح للاقتداء به(٦٩). فتحوّل النّبيﷺ إلى صلة بين المتلقّي وقصّة زكريّاعليه السلام.

٣ -ثم يشرّف الله زكريّاعليه السلام بإضافته إليه ﴿عَبْدَهُ زكريّآ﴾ وهي العبودية التي هي من أعظم الصّفات، ثم تبدأ القصّة من وسطها، بتفصيل الدّعاء وعلّته.

وقبل استخراج بقيّة صفات شخصيّة زكريّاعليه السلام من دعائه، نعود إلى سورة آل عمران التي بدأت بالكشف عن شرارة هذا العزم من زكريّاعليه السلام في دعاء ربه، لنرصد صفات يتمتّع بها زكريّا كانت إرهاصًا لهذا الدّعاء، الذي هو أسّ القصّة الموضوعيّ ومرتكزها.

---

(٦٦) انظر: سعيد بنكراد، سيميولوجية الشخصية السردية (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجًا)، ص ١٩٣. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ٨٣ وما بعدها.

(٦٧) انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ١٩٣.

(٦٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٤).

(٦٩) الرازي، مفاتيح الغيب (٥٠٥/٢١) وما بعدها.

٤ -قال الحق ﷻ ﴿وَكَفَّلَهَا زكريّا﴾، إنّ إسناد هذه المهمّة لزكريّا عليه السلام لها مقوّمات أستحق بها أنّ ينال هذا الشّرف الكبير، يظهر هذا الشّرف في قراءة التّشديد التي تشير إلى عناية الله بمريم - عليها السلام -، وأنّه هو من اختار زكريّا لكفالتها، وأيضًا قراءة التّعدّي بالهمزة (وأكفلها). أمّا قراءة التّخفيف (وكفَلها)، وأنّ الفاعل هو زكريّا، فإنّ ذلك لم يكن إلا بمشيئة الله وتوفيقه وإيجابه(٧٠)؛ إذ لم يكن التكفّل ميسّرًا لزكريّا، وإنّما كان له منافسون من عبدة المعبد، ولكنّ الله اختاره للقرابة، ولأنّه نبيّ قومه من سلالة أنبياء.

٥ -ويمضي الخطاب المسرود مبرّزًا صفة أخرى لزكريّا عليه السلام وهي كمال عنايته بمريم - عليها السلام - وحسن قيامه بما كلفه الله به ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ فـ(كلما) تدل على مداومته على خدمتها ومواصلة عنايته بها، كما أنّها تقتضي التّكرار، فيدل على كثرة تعهّده وتفقّده لأحوالها(٧١). وهذا ما نستشفه من ذكر زكريّا الفاعل في مقام الإضمار.

٦ -وموقف آخر يكشف عن صفة أخرى لزكريّا عليه السلام وهي قوّة صلته بربه؛ ذلك أنّه عندما رأى الرّزق متتابعًا عند مريم سألها: أنّى لك هذا؟. وكان جوابها مباشرًا (هو من عند الله). هنا حرّكت إجابتها في ذاته أملًا طالما تردّد في نفسه، وانطوت عليه روحه، وهو النّبيّ، ولكنّها النفس البشريّة. ومن غير تأخير ﴿هُنَالِكَ﴾ نادى ربه ودعاه متمنطقًا بمشيئة الله وقدرته، وأنّه يرزق من يشاء بغير حساب. وهنا نعود إلى سورة مريم التي فصّلت في هذا الدعاء، الذي يكشف جوانب متعدّدة من شخصيتّه عليه السلام، جوانب خارجية وداخلية، اجتماعيّة ونفسيّة.

خطاب الدّعاء وأثره في كشف شخصيّة زكريّا عليه السلام:

لأهميّة هذا الدّعاء فقد ذُكر في جميع السّور التي ذكرت القصّة: مريم، الأنبياء، آل عمران. وبه تتجلّى عدد من صفاته عليه السلام:

أ -في البدء، إنّ عدم إبطائه في التّوجّه إلى الله يكشف عن أمرين ذاتيين: قربه من الله، وأنّ هذا القرب منحه قوّة في الثّقة بالله، وما يتمتّع به من عِلْم عن الله بأنّ أحب الأماكن إليه التي يرجى أنّ يستجيب الله هي ما يُعبد فيها. ولأنّه في بيت من بيوت الله وقلبه يرفرف رغبة بما عند الله، وأنّه قائم يصلّي في المحراب فقد خرج خطابه لربه خفيًّا، همسًا، تضرّعًا لله وإخباتًا، كاشفًا عن صفة من صفاته، وهو حرصه على إخلاص الدّعاء والبعد عن الرّياء، فجاء دعاء مخلَصًا لله لم يطّلع عليه إلا هو. فهو خطاب دالٌ على ضعف الحال والمسكنة والذّل، وفيه إشارة إلى أنّه يعيش لوازم الشيخوخة والهزال، ففيه من التصاغر للجلال والعظمة بخفض الصوت في مقام الكبرياء، وعظم القدرة. فجمع هذا الوصف حال زكريّا عليه السلام الخارجي والداخلي، فهذا الوصف للنداء مناسب لحاله، ولهذا صدّره في

(٧٠) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٧٠).

(٧١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط (٢/٤٤٣).

أول قصّته. وقد أثنى الله عليه بوصف ندائه بأنّه خفيّا، لأنّه استجاب لأمر الله وأدَبَه في الدعاء (ادعوا ربكم تضرّعًا وخفية) (٧٢) (٧٣).

٢ -أتى الملفوظ السّرديّ للدّعاء في كلا السورتين، بيد أنّ سورة مريم فصّلت فيه؛ لأنّ التركيز في سورة مريم على زكريّا منفردًا فأشير إلى دعائه بالنّداء بذكر موجبات هذا الدّعاء، التي قدّمها زكريّاﷺ بين يديّ رجائه، وجعلها وسيلة إلى أمله، ووصله لدعائه، وللدّلالة على شدّة إقباله (٧٤)، أمّا في سورة آل عمران فكانت قصّته فرعًا؛ لذا أشير إلى الدّعاء دون تفصيل فيه.

٣ -بعدها ينتقل الخطاب في وصف الشّخصيّة من المسرود إلى المنقول، من التّحليل إلى التّمثيل ، إلى خطاب زكريّاﷺ بصوته في سورة مريم، قال ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾. فهذا الخطاب من زكريّاﷺ كشف عن صفات أخر داخليّة وخارجيّة:

-(وهن العظم) وهو أمر داخلي يبيّن شدّة الضّعف. -(شيب الرأس) وهو أمر خارجيّ ظاهريّ.

وكلاهما يخبران عن حالته الرّاهنة. وفي تقديمه للوصف الباطنيّ على الظاهريّ استرحامًا لحاله(٧٥)، ولأنّ الضّعف في الباطن يكون أعمق دلالة على الحال، فلهذا بدأ به(٧٦). وقد صرّح في ذلك بقوله على الحقيقة ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾. وهذا الوصف ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ هو من الصّور الفنيّة البديعة التي تعدّدت فنونها، وكثرت لمحاتها البيانيّة والبلاغيّة، لذا وقف عندها علماء البيان، وكشفوا ما فيها من لطائف وفنون بلاغيّة أبانت عن شخصيّة زكريّاﷺ الداخلية والخارجيّة(٧٧). من ذلك:

أ -أنّه ذكر العَظْم؛ لأنّه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته؛ ولأنّه أشدّ ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن.

---

(٧٢) سورة الأعراف: ٥٥.

(٧٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١١).

(٧٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٠/٣).

(٧٥) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦/ ٥٩).

(٧٦) الرازي، مفاتيح الغيب (٥٠٨/٢١).

(٧٧) انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠١. الزمخشري، الكشاف، (٤/٣). الرازي، مفاتيح الغيب (٥٠٨/٢١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١١)، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (١٧١/٦)، العلوي، الطراز (٢٣٢/٣)، الآلوسي، روح المعاني (٣٨٠/٨). ومن المتأخرين، ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٦). وقد اكتفيتُ بما فتح الله به على الزّمخشري في كشّافه من لطائف وفنون بلاغيّة؛ لأنّ أغلب من أتى بعده قد اقتفى أثره.

ب -وحّد العَظْم؛ لأنّ الواحد هو الدّال على معنى الجنسية، وقصده إلى أنّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشدّ ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جُمع لكان قصدًا إلى معنى آخر، وهو أنّه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها.

ج -شبّه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته، وهو الرأس، وأخرج الشيب مميّزًا، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطَب أنّه رأس زكريّا؛ فمن ثَّم فصحت هذه الجملة وشُهد لها بالبلاغة(٧٨).

-وفي قوله ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يشفّ عن صفة ذاتيّة داخليّة نفسيّة له، وهي وعيه ومعرفته بما يستجلب به سحائب رحمة الله وفضله، وتجلّى ذلك من خلال عدّة أمور:

-بدأ زكريّا عليه السلام بوصف عبوديّته لله، وأكدّها بتوسطها بين (كان) وخبرها؛ مبالغةً في تضرّعه وإخباته. ثم ختم مسألته بتحننّ إلى الله أنّه عادة ما يستجيب دعاءه تفضلاً منه ورحمة، "ولم تكن تخيّب دعائي إذا دعوتك؛ أيْ إنّك عودتني الإجابة فيما مضى"(٧٩).

- خوفه على الدِّين والرّسالة من أنْ يضيعا.

- في قوله ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ قدّم (لي) على (من لدنك) لأنّه الأهمّ من غرض الدّاعي، وهو غرض خاصّ يُقدَّم على الغرض العام. وقوله (من لدنك)، دل على أنّه سأل وليًا غير جارٍ أمره على المعتاد من إيجاد الأولاد لانعدام الأسباب المعتادة، فتكون هبته كرامةً له(٨٠).

-ثم هذا التنوّع في توظيف الضمائر والانتقال بينها، فالالتفات من ضمير المتكلّم إلى المخاطَب يعمّق تلك الحالة الشعوريّة والنّفسيّة المضطربة التي يعيشها زكريّا عليه السلام، وقد استشعرها المتلقّي، وتلمّس هذه الحالة من خلال هذا الانتقالات المتنوّعة في الخطاب.

-ولأنّه لا يأمن أقاربه، وأنّ امرأته عاقر فقد نما في حسّه الخوف من الوحِدة، فقال - في سورة الأنبياء - ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فشبّه نفسه لأنّه بلا ولد بالمفرد؛ لأنّ الولد يصير أباه كالشّفع لأنّه جزء منه(٨١). وهنا تتجدّد الصّفة الذّاتيّة نفسها، وهي وعي زكريّا ومعرفته بما يُستجلب به سحائب رحمة الله وفضله، فقد أكّد رغبته وسعيه

---

(٧٨) انظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/٣).

(٧٩) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/١١).

(٨٠) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦/ ٦٥).

(٨١) انظر: الزمخشري، الكشاف، (١٢٣/٣).

للابتعاد عن الوحدة بختم طلبه بالثناء على الله من جنس طلبه ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، أيْ أنت الوارث الحق، فاقض عليّ من صفاتك العليّة شيئًا(٨٢).

-وعن وضعه الاجتماعي فقد أشار خطاب زكريّا أنّه محاط ببني عمومة وعصبة، لكنّهم مهملين الدّين، فخاف بموته أنْ يضيع الدّين فطلب وليًا يقوم بالدّين بعده(٨٣).

-وعن محيطه الاجتماعي الخاص أبان أنّ امرأته عاقر لا تلد. وعن شيء من نسبه أشار أنّ فيه أنبياء وأولياء، فذكر في دعائه أنْ يكون الولد من آل يعقوب، ذلك أنّ آل يعقوب أخواله(٨٤).

ثانيًا: الشّخصيّات الثّانوية، وهما شخصيّتان: يحيىعليه السلام وأمّه.

الشخصية الثّانوية الأولى: يحيىعليه السلام. لقد صيغت شخصيّته بالطّريقة التّحليليّة بالخطاب المسرود، أيْ السّارد هو من تولى رسم شخصيّة يحيىعليه السلام، ولم يفتح السّرد مسربًا خطابيًا لشخصيّة يحيىعليه السلام لتتكلّم عن ذاتها. وقد أتى هذا الكشف من الخارج والداخل معًا.

أولًا: المخبِر عنها في البدء هو زكريّاعليه السلام. فقد أبان عن نسب يحيى بأنّه من آل يعقوب، وهذا من الخارج ومن الشأن الاجتماعي. وعن نصيبه من رحمة الله، دعاء زكريّا أنْ يجعله رضيًا عند الله وعند خلقه، مرضيًا في أخلاقه وأفعاله، ومآله نبيًا كما جعلت أباه نبيًا(٨٥).

فزكريّاعليه السلام قدّم إرهاصًا وتطلّعًا للمتلقّي عن شخصيّة يحيىعليه السلام وصفاتها.

ثانيًا: المخبِر عنها هو الخطاب الرّبانيّ المسرود؛ سعيًا لتحقيق هذا الإرهاص الذي هو تشويق على تشويق واستشراف على استشراف:

-أوّلُ وصفٍ له وعلامة تميّزها عن غيرها في القصّة هو اسمها (يحيى) وكان من عند الله قد تفرد بتسميته ولم يُوكل ذلك إلى الأبوين. وهذا فضل على فضل، وكرامة ما بعدها كرامة لزكريّا وليحيى - عليهما السلام - إذ جعل اسم ابنه مبتكرًا. والأسماء المبتكرة مزيةُ قوّةٍ تُعرّف المسمّى لقلة الاشتراك، إذ لا يكون مثله كثيرًا مدّة وجوده، وله مزية اقتداء الناس به من حين يسمّون أبناءهم ذلك الاسم تيمنًا واستجادة(٨٦). لذا أكّد الخطاب الرّبانيّ أنّه لم يجعل له من قبل سميًا، أيْ لم يسمّ أحد بيحيى قبله(٨٧). واسم يحيى اخْتلِف فيه، أهو عربيّ أم أعجميّ؟. وهو

(٨٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩٩/١٧).
(٨٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/١١).
(٨٤) انظر: المصدر السابق (١١/١١).
(٨٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١١).
(٨٦) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٩/١٧).
(٨٧) انظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٧).

ممنوع من الصرف، فإنْ كان أعجميًّا فللعلميّة والعجمة، وإنْ كان عربيًّا فللعلميّة ووزن الفعل، كيعمر ويعيش. وهو مشتقّ من الحياة، وهو الذي عليه كثير من المفسّرين(٨٨).

-وقد توجّه الخطاب الرّبانيّ إليه مباشرة في سورة مريم ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ ثم التفت الخطاب المسرود إلى الإخبار بضمير الغائب ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرّٗا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾. صفاتٌ ذاتيّة داخليّة، بخطاب شامل للزّمن الحاضر والمستقبل، يكشف عن شخصيّة يحيى الولد المبشّرِ به، رحمةً من الله بعبده زكريّا وابنه يحيى، بها تتمّ النعمة وتتحقّق البشارة، وتحدث القفلة القصصيّة لقصّة زكريّا عليه السلام في سورة مريم.

-ثم يأتي تفصيل آخر لأوصاف يحيى في سورة آل عمران: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الأولى: إمعانًا في التطلّع للمستقبل واستشرافه، مستقبل خاص بيحيى وآخر بعيسى - عليهما السلام - وذلك في قوله (ومصدقًا بكلمة من الله) (٨٩) وهذه الصّفة الأولى وهي داخليّة ذاتيّة. وبه كانت قمّة مفاجأة زكريّا؛ إذ ليس هو ولد فحسب، وإنّما هو ما رجاه وتضرّع إلى الله من أجله بأن يجعله (رضيًّا) وكأنّ الأوصاف التّالية تفسّر مراد زكريّا من طلبه.

الثانية: سيّدًا، أيْ في جميع الصّفات المذكورة، من العلم والحلم والكرم والعفّة والزّهد والورع(٩٠).

الثالثة: حصورًا: أيْ مبالغًا في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة(٩١).

الرابعة: ختام هذه الصفات بأفضلها وأجمعها (نبيًا من الصالحين) فهو تدرّج في الأوصاف حتى اكتمالها، فليس بعد السّيادة والزّهد التّام إلا النّبوّة(٩٢).

الخامسة: من الصّالحين. وهذا يشير أنّ الصّلاح هو الغرض الأعظم والغاية القصوى(٩٣).

وهكذا جلّى الخطاب القرآنيّ شخصيّة يحيى عليه السلام المبشّر به من جميع جوانبها، الذي أتى من خلال الخطاب الرّبانيّ المسرود بالطّريقة التّحليليّة.

الشخصية الثّانوية الثّانية: امرأة زكريّا عليه السلام.

---

(٨٨) انظر: أبو حيان، البحر المحيط (٤٤٧/٢)

(٨٩) وهو قول أكثر المفسرين. انظر: القرطبي (٧٤/٤).

(٩٠) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧١/٤).

(٩١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٢)..

(٩٢) الرازي، مفاتيح الغيب (٢١٣/٨).

(٩٣) انظر: النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١٥٤/٢).

تمثّلت شخصيتها من خلال الوصف، لقبها وعلاقتها بزكريّاﷺ، وبعض حالها. فهي غير مشاركة في الأحداث؛ لذا فإنّ بعض النّقّاد لا يرى مثل هذا النّموذج أنّه شخصيّة، وإنّما داخلة في وصف الشّخصيّة الرّئيسة وعن واقعها الاجتماعي، أيْ عنصر من عناصر المشهد الوصفي للشخصيّة الرّئيسة[٩٤]، بيد أنّها شخصيّة مؤثّرة، وإنْ كانت قابعة في خلفيّة السّرد؛ إذ هي من مسببات ما يشعر به زكريّاﷺ، لأنّها عاقر. فهي تمتلك صفات الشّخصيّة المسطّحة، التي من صفاتها، البقاء على صفة واحدة لا تتغير طوال القصّة، وعواطفها ومواقفها لا تتبدّل ولا تتطوّر. وفي العمل السّرديّ لا يمكن أن تكون الشّخصيّة المركزيّة إلا بفضل الشخصية الثانوية[٩٥]. رغم أنّها في سورة الأنبياء أصلحها الله فتغيّر حلها، ثم تغيّر وصفها من (امرأته) إلى (زوجه) فتطوّر حضورها ضمن حركة الشّخصيّات كلّها (وأصلحنا له زوجه). والعلّة البيانيّة لاختلاف صفتها في سورة الأنبياء ذلك أنّ السياق والمقام هو الذي استوجب اختيار هذه الصّفة؛ إذ سياق القصّة في هذه السّورة كان في معرض نعمة الله وفضله على هذه الأسرة المباركة، واستقرار حالهم وثباتهم على فعل الخير واستمراره منهم "وهو السّر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، متوجّهين إليها"[٩٦]. بخلاف بعض الآراء التي ذكرت أسبابًا غير ما سبق لهذا التّفريق[٩٧]. وكما اختلفت صفتها في سورة الأنبياء فقد اختلف ترتيب حضورها في سياق القصّتين في آل عمران ومريم؛ فقد جاء في سورة مريم ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ ثم بعد البشارة ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾. وفي آل عمران ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ وذلك لغاية دلاليّة وموضوعيّة مؤثّرة في موقعها في القصّتين، يقتضيها سياق عرض زكريّاﷺ لحاله في السّورتين؛ ففي سورة مريم قدّم حال نفسه ثمّ ثنّى ببيان حال امرأته، فلمّا تعجّب بعد البشارة قدّم حال امرأته على حاله، استغناء بذكر حاله مقدَّمة. أمّا في سورة آل عمران فلم يقدّم زكريّاﷺ بين يديّ دعائه حاله، لذا أشار إلى نفسه بوصفه المانع الأصل في عدم إنجابه " لِما أنّ المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب"[٩٨]. وقد أشار زكريّاﷺ لصفة متجذّرة في امرأته بالفعل الماضي بأنّها عقيم من أوّل عمرها[٩٩]، ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ وذلك بعد

---

(٩٤) انظر: لطفي زيتوني، معجم مصطلحات الرواية، ص ١١٤.

(٩٥) انظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ١٠٢.

(٩٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٦/ ٨٣).

(٩٧) من مثل، أنّ ذلك له علاقة بالذرية، فلمّا كانت عاقرًا في سورتي مريم وآل عمران وصفت بالمرأة، ولما أنجبت وُصفت في سورة الأنبياء بالزوجة لتحقُّق معنى الزوجية على أتمّ صورة. انظر: صلاح الخالدي، الإعجاز البياني ودلائل مصدره الرباني، ص ٢١٥.

(٩٨) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٥/ ٢٥٦).

(٩٩) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٢/٣).

السّؤال التّعجّبي مباشرة؛ ليؤكّد أنّ عقمها ملازم لها وليس حادث بسبب الكبر، لذا كان إيراده بلفظ الماضي أقوى[١٠٠]. فهي صفة داخليّة، لها أثرها النّفسيّ والاجتماعيّ عليها وعلى زكريّا.

المطلب الثّالث: الشّخصيّة كعامل من عوامل القصّة.

ينظر غريماس (Greimas) إلى الشّخصيّة بوصفها عاملًا، أيْ إلى عملها في المقام الأول لا إلى الشّخصيّة ذاتها، فالشخصية لا تتحدد إلا من خلال ما تقوم به في الحيّز السّردي، من خلال أفعالها المسندة إليها، فتتحول إلى نموذج يمكن تعميمه وترميزه. والعامل عنده قد يكون قادرًا على القيام بأكثر من دور عاملي، فيكون قادرًا على أنْ يصبح هو المانح والمساعد في الوقت ذاته[١٠١].

ويحصر غريماس(Greimas) شخصيات العمل السّردي في ثلاث مجموعات هي المحرّكة للبنية السّرديّة، ويستخرج من هذه المجموعات ستّ شخصيّات عاملة:

المجموعة الأولى: الذّات في مقابل الموضوع. المجموعة الثانية: المرسل في مقابل المرسل إليه.

المجموعة الثالثة: المساعد مقابل المعيق.

ويعمّق غريماس (Greimas) دلالة هذه المجموعات البنيويّة بربطها بثلاثة دوافع أو محاور، تُعدّ هي المحرّكات للسّرد:

الأول: محور الرغبة، فعلاقة الذّات بالموضوع يحكمها دافع الرغبة في امتلاك شيء مرغوب فيه، فزكريّا عليه السلام (الذّات) والولد (الموضوع). والموضوع يتطلب ملفوظًا وصفيًا وقيمة، فالملفوظ هنا الدّعاء، الذي يجعل من الموضوع (الولد) ذا قيمة، الذي يرغب زكريّا عليه السلام (الذّات) في الحصول عليها.

ثانيًا: محور الاتّصال، الذي يحكم علاقة المرسل بالمرسل إليه. فالمرسل زكريّا عليه السلام والمرسل إليه الحق ﷻ وعلاقة التواصل بين زكريّا عليه السلام والحق ﷻ تبادليّة، تمر عبر العلاقة بين الذّات والموضوع. فزكريّا عليه السلام يرغب في الولد، والمرسل إليه والمتلقّي لرغبته عليم به لا يخفى عليه شيء من أمره، وقد سمع دعاءه فهو السميع العليم، وهو الذي يفعل ما يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب. ثم يحدث التناوب، فيتحوّل المرسل (زكريّا) إلى مرسل إليه، والمرسل إليه (ﷻ)إلى مرسل. فالبنية العاملية لقصّة زكريّا هي بنية دائريّة.

ثالثًا: محور الإعاقة: بين المساعد والمعيق. والمساعد للمرسل الأول (زكريّا) هو حسن بلائه وقوة إيمانه، كما أنّ لديه أسبابه وبواعثه الدّينيّة والاجتماعيّة، ولأنّه لم يكن بدعاء ربه شقيًا. أيضًا لديه موانع لهذه الرغبة، وهو (المعيق) من بلوغه الكبر عتيًا، وامرأته عاقر. أمّا المساعد (ﷻ) للمرسل إليه زكريّا عليه السلام - بعد عملية التناوب - فهو

---

(١٠٠) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١٦).

(١٠١) انظر: د. نبيلة إبراهيم. فن القص في النظرية والتطبيق، ص، ٣٢-٤٢؛ حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص ٣٢-٣٦.

ليس بحاجة إلى مساعد، ولا يستطيع مُعيقٌ أنْ يعجزه، إنّما هو التحقق الكامل والقدرة المطلقة. وهذا يلغي طرفين أساسين في بنية النموذج العاملي (المساعد والمعيق) الخاص بالحق ﷻ، وفي ذلك تميّز فريد للقصّة القرآنيّة، ثم السّرد القرآني عامة. لذا فإنّ الفاعل (ﷻ) حقق محور الرّغبة للمرسل إليه، فلا تنتهي القصّة إلا وقد تحقّق هذا المحور، ونالت الذّات مرادها، نتيجة لمحور الاتصال البليغ والمؤثر، والمساعد المبارك (الدّعاء). وبذلك فإنّه ﷻ تعدّدت أفعاله في هذه القصّة فكان هو المانح والمساعد في الآن ذاته.

المبحث الثّالث: الزّمن.

لا سرد ولا قصّ بدون الزّمن "فمن المتعذّر أنْ نعثر على سرد خالٍ من الزّمن، فالزّمن هو الذي يُوجد في السّرد، وليس السّرد هو الذي يُوجد في الزّمن"(١٠٢).

و"القصّ هو أكثر الأنواع الأدبيّة التصاقاً بالزّمن" (١٠٣). فهو عنصر أساس لا تستغني عنه القصّة وعناصرها الأخرى فهو"لُحمة الحدث، ومِلْح السّرد"(١٠٤). وقد اعتنى الشكلانيون الرّوس بالزّمن، ومن أبرزهم توماشفسكي (Tomashevsky) الذي نظر إلى الزّمن انطلاقاً من ثنائية المبنى الحكائي والمتن الحكائي، والمتن الحكائي كما يعرفه توماشفسكي (Tomashevsky) هو "مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها التي يقع أخبارنا بها خلال العمل" (١٠٥)، أمّا المبنى الحكائي فهو "يتألف من الأحداث نفسها، بيد أنّه يراعي نظام ظهورها في العمل، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لها"(١٠٦)، أمّا جينيت (Genette) فيفرّق بين زمن القصّة وزمن الحكاية(١٠٧)، وقد وافقه كثير من النّقّاد من بعده، فزمن القصة: الزمن الطبيعي الذي تسير على وفقه مجريات الأحداث على أرض الواقع. أمّا زمن الحكاية فهو ذلك الزّمن الفنّيّ الذي يحاول أنْ يقوم مقام الزّمن الحقيقي في القصّ(١٠٨). وفي هذا الزّمن يكون التّحكّم في سير الأحداث بيد الراوي.

ولعدم التطابق بين هذين الزّمنين ظهرت ما يسميه جينيت (Genette) بالمفارقات الزمنية(١٠٩)، وعناصرها (الترتيب، المدة، التواتر). وهي النّاشئة "بسبب التّنافر الحاصل بين النّظام المفترض للأحداث، ونظام ورودها في الخطاب"(١١٠).

والقصص القرآني مستوعب لهذه التّقنية، ومحقّق لهذه المفارقة الزّمنيّة مع أنّ زمنه زمن واقعيّ تاريخيّ لا تخييليّ، فمع حضور الواقعة التّاريخيّة الواقعيّة إلّا أنّ أحداثها ليست محشوّة بالتفاصيل، ولا متقيّدة بالتسلسل السّرديّ

---

(١٠٢) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٢٦.

(١٠٣) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص

(١٠٤) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص ٢٠٧.

(١٠٥) انظر: نظرية المنهج الشكلي، ص ١٨٠.

(١٠٦) انظر: نظرية المنهج الشكلي، ص ١٨٠.

(١٠٧) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ٤٦.

(١٠٨) انظر: المصدر السابق، ص ٤٦.

(١٠٩) انظر: المصدر السابق، ص ٤٦-٥١.

(١١٠) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ١٥.

التّاريخيّ الصارم؛ لأنّ التّاريخ فيه لم يقصد لذاته، وإنّما لاستخلاص العبرة منه، وللتّفكر في العلاقات السّببية بين مقدّمات الأحداث ونتائجها، وفق سنن إلهية(١١١). وهو بذلك يختلف عن الكتب السماوية الأخرى مثل (الإنجيل والتوراة) (١١٢). وهنا تبرز فنيّة القص القرآني الإعجازي في تعامله مع الزّمن برؤية إبداعيّة تخدم مساعيه العظيمة من التأثير واستنطاق العبرة في النّص القصصي. فهو زمن فريد، يمتلك صفات خاصّة تنطلق من خصوصيّة القرآن الكريم، فمن المستحيل أنْ نجد في السّرود البشريّة زمنًا يضاهي زمن السّرد القرآني في اتساعه وامتداده، إنّه زمن قبل الزّمن البشري نفسه، منذ بدء الخلق، وانتهاءً بلحظة القيامة(١١٣).

وسأتوقّف عند التّرتيب والمدّة. فمن الترتيب (الاسترجاع والاستباق). ومن المدّة (الحذف والخلاصة)..

المطلب الأول: الترتيب (الاسترجاع والاستباق).

أولًا: الاسترجاع.

وهو مفارقةٌ زمنيّة يعود بوساطتها الراوي بقارئ نصّه إلى الماضي بالنّسبة للحظة الرّاهنة، تلك اللحظة التي يتوقّف فيها القصّ الزّمنيّ لمساقٍ من الأحداث ليفسح المجال أمام عمليّة الاسترجاع(١١٤).وهو أنواع: استرجاع إعلاني، استرجاع تمهيدي. كما أنّه استرجاع داخلي، واسترجاع خارجي، كذلك هو استرجاع قريب المدى، واسترجاع بعيد المدى، كما أنّه استرجاع محدّد المدة وغير محدّد(١١٥).ومن السّمات الفنيّة التي يحقّقها الاسترجاع للنصِّ هي ملءُ بعض الفراغات الزّمنيّة والثّغرات الحكائية ليساعد بذلك على فهم مسار الأحداث(١١٦).

وقصة زكريّا عليه السلام كغيرها من قصص الأنبياء السّابقين لبعثة النبي ﷺ هي استرجاعٌ زمن نزولها على النّبي ﷺ أيْ زمن الوحي. هذا في الشأن العام لقصّته، أمّا الاسترجاع الخاص بها؛ أيْ الاسترجاع الدّاخلي فقد أتى في موضعين:

أولًا: في قوله تعالى ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زكريّآ﴾ فهذا استرجاع بعيد المدى على حاضر السّرد وزمن المتلقّي، وهو استرجاع داخلي، لم يستجلب قصّة خارجيّة على القصّة الرّئيسة، وهي قصّة زكريّا عليه السلام. فهو استرجاع واستباق في الآن نفسه، استرجاع تبعًا لزمن السّرد وحاضره، واستباق تبعًا للزّمن التّاريخيّ للقصّة. جاء خطابًا للنّبي ﷺ ومن زامنه في الحاضر ولمن بعده، فهو خطاب خاصّ يفيد العموم.

---

(١١١) انظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ص ١٧٦.

(١١٢) انظر: المصدر السابق، ص ٩٩.

(١١٣) انظر: رياض بن يوسف، أدبية السرد القرآني، ص ١٠٥.

(١١٤) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ص ٢٥.

(١١٥) انظر: جيرار جنيت، خطاب الحكاية، ص ٦٠-٦٦.

(١١٦) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٤٠.

ثانيًا: ومن الاسترجاعات في القصّة ما جاء في سورة آل عمران، وذلك بعد قَفْل القصّة والعودة إلى القصّة الأم بنداء الملائكة الأوّل لمريم - عليها السلام - ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ بعدها يحدث استرجاع لحدث لم يُشَر إليه في بداية انطلاق قصة زكريّاعليه السلام، وهو حدث يأتي بوصفه بداية لعلاقة زكريّاعليه السلام بمريم - عليها السلام - وهو حدث الكفالة (كفّلها)، قال ﷻ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾[١١٧]. (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك)، أيْ نقصّه عليك، (وما كنت لديهم) أيْ ما كنت عندهم يا محمد، فتخبرهم عن معاينة ما جرى، بل أطْلعك اللّه على ذلك كأنّك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم، حين اقترعوا في شأن مريم أيّهم يكفلها وذلك رغبتهم في الأجر[١١٨]. فهذا استرجاع داخليّ مضمّناً في الحقل الزّمني للحكاية السابقة (قصة زكريّا)، بمعنى أنّ سعته كانت داخل سعة الحكاية الأولى[١١٩]، كما أنّه استرجاع تمهيدي بقوله (وما كنت لديهم). فهذا الحدث هو استرجاع له مكانته في القصّة، فيه استدراك وكشف لحلقة مؤثرة في سير الأحداث، وأخّرها الخطاب الرّبانيّ من أجل غرض بنائيّ، وهو استقامة سير الأحداث، ثم مفاجأة المتلقّي في نهايتها وبعد إقفالها بإضافة حدث سبق الإشارة إليه سريعًا، وهو حدث الكفالة (وكفّلها زكريّا) ثم العودة إليه بعد تمام القصّة ساردًا بعضًا من تفاصيل ذاك الحدث. فالخطاب الرّبانيّ استدعى هذا الحدث ليصل ما انقطع من زمن أحداث قصّة زكريّا، رابطًا أوّل القصّة بآخرها، ليعرضها على المتلقّي في نسيج متكامل الأحداث. وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ...﴾ هو من الاسترجاعات التّكميليّة التي يعود فيها الخطاب إلى نقطة محدّدة، لها وقع مؤثّر في أحداث القصّة لتزويد القارئ بمعلومات تسهم في فهم ما جرى ويجري من أحداث، من أجْل أنْ تكتمل حلقاتها[١٢٠]. وفيه زيادة إضاءة على شخصيّة زكريّا، وهي دخوله في نزاع مع خصومه في مريم - عليها السلام – ثم توفيق الله له، واختياره لكفالتها. وذلك كلّه متساوق وغرض سورة آل عمران في ذكر قصص بعض الأنبياء، ومنهم قصة امرأة عمران ومريم وعيسى وزكريّا ويحيى - عليهم السلام -، وهو "حُجَّة على نبوَّتهﷺ، وتحقيقًا لصدقه، وقطعًا منه به عذر منكري رسالته من كفّار أهل الكتابين الذين يعلمون أنَّ مُحمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلا بإعلام الله ذلك إياه"[١٢١].

---

(١١٧) آل عمران: ٤٤.

(١١٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥/٢).

(١١٩) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ٦١.

(١٢٠) انظر: المصدر السابق، ص ٦١.

(١٢١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٤).

ثانيًا: الاستباق: هو ضد الاسترجاع، إذ هو تطلّع واستشراف للآتي من زمن السّرد، وإشارات لطيفة إلى ما سيقع في قادم سرد القصّة الحكاية، مولّدًا في القصِّ حالة من التّرقب والتّرصد لما سيأتي(١٢٢)، وهذا التّوقع والاستشراف إلى ما هو آتٍ هو الوظيفةُ الأصلية والأساسية للاستباقات بأنواعها المختلفة(١٢٣). وإذا قورن بحضوره أمام حضور الاسترجاع فهو أقلّ منه حضورًا في العموم، وهذا لا يعني أنّه أقلّ أهميّة منه(١٢٤) بخاصّة القصص الواقعيّة المتجافية عن الخيال كقصص القرآن. وإذا كان وقوع الأحداث التي يُستشرف وقعها ليس ضروريًا وقوعها حقًا، فإنّها في القصص القرآنيّ محقّقة الوقوع، وهذا تميّز لها؛ لأنهّا من القصص الحقّ. وهو أنواع كما الاسترجاع. داخليّ وخارجيّ، تمهيديّ وإعلانيّ ومحدّد المدة وغير محدّد(١٢٥). وكل الاستباقات في قصة زكريّا هي داخليّة وإعلانيّة ومحدّدة المدى.

من أبرز مظاهر الاستباق فيها:

أولًا: في قوله ﷻ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زكريّآ﴾ استباق إعلانيّ داخل القصّة، وقوع مداه الزّمنيّ داخل نطاق المحكيّ الأول، يقوم بمهمّة التّشويق، وينال عناية المخاطَب ﷺ ومن وراءه. استباق يعلن شخصيّة الفاعل الثاني في القصة (زكريّا عليه السلام)، كما يعلن عن مقصديّة القصّة ومغزاها؛ إذ يكشف عن رحمة الله في الفاعل الثّاني للقصّة، هذه الرحمة التي سيكون لها سبب مؤثر في توجيه الأحداث وتوتّرها. وهو استباق إعلانيّ ذو مدى قصير؛ إذ سريعًا ما دخل السّرد في الأحداث. ولهذا الاستباق الإعلانيّ غاية بنائيّة، وهي تنظيم زمن القصّة في مستقبل الأحداث، وهو ما يسميه بارت (Barthes) بـ"ضَفْر" الحكاية (تضفير)؛ بسبب التوقّع الذي تحدثه في ذهن المتلقّي(١٢٦). كما أنّه استباق في صلب استرجاع(١٢٧)، استباقٌ في مضمونه استرجاع، أو كما يصفها جينيت (Genette) بـــ(الاستباقات الاسترجاعية) أو (الاسترجاعات الاستباقية) (١٢٨) استباق في حاضر السّرد واسترجاع لزمن الحكاية في الماضي.

ثانيًا: الدّعاء والنّداء بطلب الولد، استباق وتطلّع وتشوّق لزكريّا عليه السلام وللمتلقّي. وقد تجلّى هذا الاستباق في صيغة الدّعاء وبواعثه وابتهالاته.

---

(١٢٢) انظر: عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص ١١٤.

(١٢٣) انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص١٣٣.

(١٢٤) انظر: نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، مجموعة من النقاد، ص ١٢٤؛ جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ٧٦.

(١٢٥) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ٧٩-٨٥.

(١٢٦) انظر: المصدر السابق، ص ٦١.

(١٢٧) انظر: تزفيطان تودوروف، الشعرية، ص ٤٨.

(١٢٨) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ٨٦.

ثالثًا: ومن الاستباق، وهو داخليّ أيضًا، وقصير المدى ومحدّد المدة، طلب زكريّاعليه السلام الآية والعلامة ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ أراد آية على وقت حصول ما بُشّر به، أهو قريب أم بعيد. وقد اتفقت السّورتان في هذا الطلب. وفي تقديم الجار والمجرور (لي) رغبة منه في اختصاصه بذلك وتشوّقًا لما بعده. ومنشأ طلبه لأنّ البشارة كانت مطلقة عن تعيينه، وهو أمر خفيّ لا يوقف عنده، فأراد أن يطلعه الله عليه لتلقّي تلك النعمة الجليلة بالشّكر من حين حدوثها، ولا يؤخره إلى أنْ تظهر تلك الآية، زيادة نعمة وكرامة[١٢٩].فأعطاه الحق ﷻ الآية ألّا يكلم النّاس ثلاثة أيام بلياليها إلا رمزًا؛ بالإشارة أو الإيماءة، وانتظرًا لذلك عليه أنْ يلزم الذّكر ليل نهار، بكرة وعشيًا.

رابعًا: ما اكتنفته البشارة بيحيى عليه السلام وهي البشارة بعيسىعليه السلام، ففي سورة آل عمران أتى تفصيل لأوصاف يحيىعليه السلام إمعانًا في التطلع للمستقبل واستشرافه، ومنها البشارة بعيسى عليه السلام [١٣٠] وذلك في قوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو اعتبار ما سيكون. إذ "أُجْمل هذا الخبر لزكريّاء ليعلم أنّ حادثًا عظيمًا سيقع يكون ابنه مصدّقًا برسول يجئ، وهو عيسىعليه السلام "[١٣١]. وهذا من الاستباق الإعجازي الخاص بالقصّة القرآنيّة. وهو استباق لحظة الوحي لزكريّا بالبشارة، ولحظة الوحي به إلى النّبيﷺ؛ أيْ استباق زمن الحدث وزمن القراءة.

المطلب الثّاني: تسريع الأحداث (المدّة أو الدّيمومة).

هي التي ترصد العلاقة بين زمن القصّة الذي يُقاس بالأيّام والشهور والسنين، وزمن الخطاب الذي يقاس بالكلمات والجمل والأسطر[١٣٢]. ومن أجل رصد هذه العلاقة هناك أربع حركات سرديّة. وهي عند جنييت (Genette)، اثنتان لتبْطِئة الزّمن: الحوار والوصف. واثنتان لتسريعه: الخلاصة والحذف. والأكثر شيوعًا في القصّة من حركات تبطئة السّرد هي الحوار، ومن تسريعه هي الحذف. وسأتوقف عن تقنيتي التسريع (الحذف والخلاصة)؛ لأنّ تقنية التّسريع هي الأكثر دلالة على سرديّة القصّة القرآنيّة في مقابل السّردية غير القرآنية، وأمّا الحذف فلشيوعها في القصة، ولخفائها أحيانًا ولتعدّد وظائفها، وأمّا الخلاصة فلاستقلال قصّة خاصّة بها لزكريّاعليه السلام في سورة الأنبياء.

---

(١٢٩) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٤/١١).

(١٣٠) وهو قول أكثر المفسرين. انظر: القرطبي (٧٤/٤).

(١٣١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٠/٣).

(١٣٢) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ١٠١.

أولًا: الحذف: هو "تقنية زمنيّة تقضي بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصّة، وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث"(١٣٣). فهو يقوم بدور حاسم في اقتصاد السّرد وتسريع وتيرته(١٣٤).

فالحذف يسقط ما يُسمى بالمدّة الزّمنيّة الميّتة، تلك المدّة التي وقع فيها حدث أو مجموعة أحداث يرى فيها الراوي إنّها تؤثّر على سيرورة السّرد وتطوره.

وهو نوعان من ناحية ظهوره أو خفائه في النص: صريح وضمني. والصّريح هو ما يصرّح بالحذف بأيّ علامة ممكنة، ويكون له مدة معلومة أو غير معلومة، أيْ إشارة محدّدة أو غير محددة. والضّمنيّ ما خلا من ذلك. والحذف من ناحية المدى الزمني نوعان: قريب المدى، بعيد المدى(١٣٥).

والحذف في قصّة زكريّاﷺ من الحذف الضّمنيّ، الذي لا يُصرّح بوجوده في النص، وإنّما يمكن للقارئ الاستدلال عليه من خلال ثغرةٍ في التسلسل الزّمنيّ او انحلال لاستمراريّة السّرد(١٣٦).

وقد أشار غريماس (Greimas) إلى شرط مهم في هذا الحذف: بأنّه يجب على الحذف ألّا يضعف قدرة القارئ على فهم القول المحذوف، أيْ أنْ يكون بالإمكان معرفة الوحدات المحذوفة انطلاقًا من الوحدات المذكورة(١٣٧).

النّوع الأوّل من الحذف الضّمنيّ: الحذف قريب المدى. ومن نماذجه في القصّة:

١ - في قوله ﷺ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أيْ بعد البشارة أراد أنْ يقوم بشكرها وأنْ يُشْرك قومه في ذلك ليُكَثّر الشّاكرين لله فخرج على قومه. والحذف قريب المدى يقترب من الحذف اللّغوي، وهو إسقاط كلمة أو جملة من السّياق لدلالة غيرها من السّياق نفسه. ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه. "وأصله أنْ يكون في الكلام ما يدّل المحذوف، فإن خلا الكلام من الدليل فإنّه لغو من الحديث، لا يجوز بوجه ولا سبب"(١٣٨). وهو أحد نوعيّ الإيجاز(١٣٩). والحذف اللّغوي غايته الإيجاز السّرديّ والتّكثيف الدّلالي للقصّة. وهو الأكثر حضورًا، ويشفّ عن مبدأ إعجازي يعتني بالأحداث المهمة، متجافيًا عن ذكر الجزئيات التي تُفهم من سياق القصّة، ودل عليها ما قبلها وما بعدها، وفي ذلك غاية بنائيّة، وهو مشاركة المتلقّي في تكملة ما حُذف من القصّة، وملء الفجوات الزّمنيّة بسبب هذا الحذف؛ مما يجعله يتأمّل القصّة ويستحضرها كاملة، متوقّفًا عند مواطن العظة والعبر فيها. ونلحظ أنّ

---

(١٣٣) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ١٥٦.

(١٣٤) المصدر السابق، ص ١٥٦؛ التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٨٧.

(١٣٥) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ١١٩.

(١٣٦) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية ، ص ١١٩.

(١٣٧) انظر: لطفي زيتوني، معجم مصطلحات الرواية، ص ٧٥.

(١٣٨) ابن الأثير، المثل السائر (٨١/٢).

(١٣٩) النوع الثاني، إيجاز القصر، وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف. انظر: المصدر السابق (٨١/٢).

الخطاب الرّبانيّ سكت عن رصد موقف الأتباع من أمره لزكريّاعليه السلام لهم بالتسبيح، وكأنّ استجابتهم له لا شكّ فيها، وهذا يدفع المتلقّي إلى تأويل أنّ ذلك يشفّ عن مدى مكانة زكريّا بين قومه ملئه.

٢ - الحذف الزّمنيّ الضّمنيّ الذي دل عليه قوله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ إذ دل على كلام محذوف "أيْ فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبد بمكان تتخذه لها محرابًا، وكان زكريّاء يتعهد تعبّدها فيرى كرامة لها أنّ عندها ثمارًا في غير وقت وجود صنفها"(١٤٠).

٣ - الحذف الزّمني بعد دعاء زكريّا، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ و"تقديره: فتقبل الله دعاءه ووهب له يحيى وبعث إليه الملائكة بذلك، فنادته"(١٤١).

النّوع الثّاني من الحذف الضّمنيّ: الحذف بعيد المدى، غير محدّد المدّة. ونموذجه في القصّة:

- قولهﷻ ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زكريّا﴾ جمع ذلك اختلافًا بين زمن القصة وزمن السّرد، إذ جاء الإيجاز في زمن السّرد، أيْ المبنى الحكائي. والتقدير: رعى الله مريم منذ ولادتها حتى كفالة زكريّا لها.

- حكاية الحق ﷻ عن يحيى ومآله فبعد خروج زكريّا على قومه من المحراب، وأمره لهم بالتسبيح، بعدها ينقطع السّرد لينتقل إلى وحدة جديدة تبدأ بمفارقة زمنيّة ذات مدى بعيد ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ حذْفٌ خارجيّ من خلال القفز الزّمنيّ إلى حال يحيى بتوجيه الخطاب إليه مباشرة، ثم بعد ذلك - ومن خلال الالتفات من الخطاب إلى الغيبة - يتضاءل هذا المدى مقاربًا المسافة بين زمنيّ السّرد والقصّة حتّى يندمجا في زمن واحد، هو زمن قصة زكريّا الكليّ بقوله ﷻ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ . لقد ولد يحيى وترعرع وصار صبيًا في الفجوة التي تركها السّياق بين المشهدين، على طريقة القرآن في عرضه الفّنيّ للقصص، ليُبْرز أهمّ الحلقات والمشاهد، وأشدّها حيويّة وحركة.

النّوع الثّاني من أنواع تسريع الأحداث: الخلاصة. وهي سردُ بضع فقرات أو بضع صفحات عن أيّام أو شهور أو سنوات، دون تفاصيل أعمال أو أقوال. وهي عند جنييت (Genette) بمصطلح (المجمل)(١٤٢) .وعند بعض النّقّاد العرب تأتي بمصطلح (الإيجاز) (١٤٣). ونتيجة لهذا يكون زمن القصّة أكبر بكثير من زمن الحكاية، فما يحدث

---

(١٤٠) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣/٢٤٠).

(١٤١) وقد يكون من نوع الحذف (بعيد المدى) في رأي بعض المفسّرين أنّ المدّة بين الدّعاء والإجابة أربعون سنة، وقيل ستّون سنة. انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢/٢٦٦)؛ أبو حيان، البحر المحيط (٢/٤٢٠). والأقرب- والله أعلم – أنه حذف قريب المدى؛ إذ إنّ الفاء (فنادته الملائكة)للتعقيب، أي استجيبت دعوته للوقت. وقوله (وهو قائم) جملة حاليّة، والمقصود من ذكرها بيان سرعة إجابته؛ لأنّ دعاءه كان في صلاته. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣/٢٤٠).

(١٤٢) انظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص ١٠٩.

(١٤٣) انظر: يمنى العيد، تقنيات السّرد في ضوء المنهج البنيوي، ص١٢٧.

في شهور وسنوات أُجمل في عدّة سطور. والقرآن الكريم يوظّف هذه التّقنية بطريقة متتابعة مطّردة في التّعامل مع الزّمن القصصيّ، طاويًا أزمنة متعدّدة، بأسلوب سرديّ اختزاليّ، مضمرًا أغلب حيثيات القصّة، مكتفيًا بذكر مواطن العبرة والعظة فيها(١٤٤).وفي قصة زكريّاﷺ في سورة الأنبياء عرضها الخطاب الرّبانيّ على طريقة الخلاصة والإجمال، مصرّحًا باسم زكريّا وابنه يحيى - عليهما السلام - ومشيرًا إلى الزّوجة بالصّفة. بيد أنّه أضمر أغلب عناصر القصّة وأحداثها، مكتفيًا بموضع العظة والاعتبار.

قال الحق ﷻ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

وقد جاء الخطاب الرّبانيّ متوجّهًا إلى المتلقّي الرّئيس وهو ﷺ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ)، بحذف المسند، أيْ واذكر يا محمد زكريّا حين نادى ربه. (إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا) أيْ وحيدًا بلا ولد يرثني، كما يشعر به التذييل بقوله ﷻ (وأنت خير الوارثين) ولو كان المراد بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقيل وأنت خير المعينين(١٤٥). (وأصلحنا له زوجه) أيْ، أصلحناها له برد شبابها إليها وجعلها ولودًا(١٤٦). ثم بيّن الخطاب الرّبانيّ الموضوعيّ علّة هذه المنن والعطايا من حصول القربى والزلفى والمراتب العالية لهم؛ لأنّهم كانوا راغبين في نعمنا وراهبين من نقمنا، أو راغبين في قبول أعمالهم وراهبين من ردها(١٤٧). فالسّياق القرآنيّ ساهم في تسريع الإيقاع السّردي لزمن قصّة زكريّا من خلال هذا التّكثيف النّصيّ الذي حقّقته الخلاصة، التي قدّمت وصفًا عامًا لشخصيّات القصّة، رابطة بين مشاهد الأحداث. وهذا من الوظائف التي تؤدّيها الخلاصة(١٤٨).

ومن خلال هذا المطلب (تسريع الأحداث) وما يطويه في قصة زكريّا من أزمنة، وما يُعرض فيها عن ذكر كثير من الجزئيات، وما يتركه من فجوات، بذلك يتجلّى سمو السّرد القصصي، وتتعالى خصوصيّة منهجه، التي تختلف شكلًا ومضمونًا عن ما سواه من الكتب السماوية الأخرى كـ(التوراة والإنجيل) (١٤٩) اللّذيْن التزما بالتّسلسل التّاريخيّ، موثّقة لحظات ميّتة لا تفيد السّرد القصصيّ.

---

(١٤٤) انظر: رياض بن يوسف، أدبية السرد القرآني، ص١١٩.

(١٤٥) الآلوسي، روح المعاني (٨٣/٩).

(١٤٦) المصدر السابق (٨٣/٩).

(١٤٧) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥٠/٣).

(١٤٨) انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٥٦.

(١٤٩) انظر: التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ص ٩٩.

المطلب الرّابع: الزمن وعلاقته بالشّخصيّة.

في هذه القصّة ارتبط الزّمن بحال شخصيّة زكريّاعليه السلام ارتباطًا بليغًا، شارك في تصوير الشّخصيّة، كما شاركت الشّخصيّة في حضور فاعليّة الزّمن في تكوين القصّة. ومن ذلك:

- أتى (الليل) في سورة مريم، و(اليوم) في سورة آل عمران - في سياق علامة البشارة - وذلك تبعًا للسّياق وما يقتضيه؛ ففي سورة مريم سبق ذكر الليل قوله ﷻ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ نداء خفيّ فناسبه ظلمة الليل لا نور النّهار.

-كذلك أنّنا إذا قابلنا بين حال الإنسان والزّمان فإنّ الشّباب والعافيّة أشبه بالنّهار وما فيه من حركة، وأنّ الشّيخوخة والضّعف أشبه شيء بالليل وما فيه من سكون، لذا ذَكَر [زكريا] كبره ووهن عظمه مع الليل في سورة مريم ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ ولم يذكر مع الأيام إلا قوله ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ في سورة آل عمران. ففي سورة مريم كانت الآية مناسبة لجوّ السّورة ومع حال الليل ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾. أمّا في سورة آل عمران فكانت مناسبة للنهار ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ أيْ ثلاثة أيّام بلياليها. ولأنّ اليوم أبْين من الليل في ظهور هذه الآية، ذلك أنّ الليل يمضي كثير منه في النّوم، وأنّ مخاطبة النّاس ومخالطتهم فيه أقل؛ لذا فالآية في اليوم أطول وأظهر؛ ومن أجل ذلك جاءت البشارة بحيى في آل عمران أكمل وأعظم ممّا في سورة مريم(١٥٠).

-أيضًا تظهر علاقة الزّمن بالشّخصيّة في التّنكير والتّعريف في زمن (التّسبيح) الذي أوحى الله به إلى زكريّاعليه السلام، إذ جاء في سورة مريم نكرتين ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، ومعرّفتين في آل عمران ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، والألف واللام فيهما للعموم، وهذا يدل على تطاول مدة الذّكر والتّسبيح، وهو مناسب لعظم البشارة التي جاءت في سورة آل عمران(١٥١).

---

(١٥٠) انظر: فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص ١١٨.

(١٥١) انظر: المصدر السابق، ص ١١٢.

المبحث الرّابع: المكان.

المكان ليس مجرد إطار للأحداث والشّخصيّات، وإنّما هو أحد العناصر الحيّة الفاعلة، إذ يحتلّ أحياناً الصّدارة في القصّة، ليصبح جزءاً مهمًا من الشّخصيّة المحوريّة في السّرد الحكائي(١٥٢).

ومع أهمّيته إلا أنّ مكانته في عالم السّردية مكانة ثانوية؛ لأنّ الأبحاث البنائيّة لم تبلور نظريّة متكاملة في الموضوع (١٥٣). وقد اعتنى به باحثون آخرون، مبْرِزين أهمّيته في السّرد، وعدّوه من المكونات الأساسية للسرد، من مثل هنري متران (H, Mitterrand) فهو يرى أنّ " المكان هو الذي يؤسّس الحكي؛ لأنّه يجعل القصّة المتخيّلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة"(١٥٤).

والحق أنّ توظيف المكان، في الإبداع القصصي، من الوسائل الفنية ذات الأعماق البعيدة، لما يحمله من ملامح ذاتيّة، وسمات جماليّة وعواطف إنسانيّة وتجارب اجتماعيّة، تجعل العمل متكاملاً فنّيًا. وللمكان أنواع متعدّدة، تبعًا لرؤية الشّخصيّة نحوه، وزاوية النظر التي يلتقط منها(١٥٥) ففيه الأليف والمعادي، وفيه الذّاتيّ والجماعيّ، وفي المفتوح والمغلق. وسأتناول المكان في قصّة زكريّاﷺ من خلال نوعيّ الأليف والمعادي والمفتوح والمغلق.

المطلب الأول: تحديد المكان ونوعه.

أولًا: تحديد المكان.

المكان في هذه القصّة، من الدعائم المهمّة لها، وليس مجرد إطار، وإنّما هو فضاء احتوى جميع العناصر القصصيّة، من حدث وشخصيات وزمان ورؤية سرديّة. وهذا المكان هو (المحراب) الذي دعم حضور القصّة وإشاريّتها الواقعيّة، وأسهم في ترابط أحداثها وتسلسلها. أمّا عن شخصيّة زكريّاﷺ فقد كشف عن بعدها الدّاخليّ والاجتماعيّ، من حرصه على قيامه بواجباته التي كلّفها الله بها، من صلاة ودعاء وتسبيح ودعوة، ومن أهمها كفالة مريم – عليها السلام – واستثماره لبركة المكان بدعائه لطلب الولد.

قال الرّاغب الأصفهاني " محراب المسجد قيل: سمي بذلك لأنّه موضع محاربة الشّيطان والهوى، وقيل: لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبًا من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر، وقيل: الأصل فيه أنّ محراب البيت صدر المجلس ثم لما اتّخذت المساجد سمّي صدره به، وقيل: بل المحراب أصله في المجلس وهو اسم خص به صدر المجلس

---

(١٥٢) انظر: لطفي زيتوني، معجم مصطلحات الرواية، ص ٧٥.

(١٥٣) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٧٣.

(١٥٤) المصدر السابق، ص ٦٥.

(١٥٥) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ٦٣.

فسمّي صدر البيت محرابًا تشبيهًا بحراب المسجد، وكأنّ هذا أصحّ، قال الله تعالى: (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) سبأ/١٣" (١٥٦).

وفي القاموس المحيط تلخيص لمعاني المحراب "المحراب: الغرفة، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن النّاس، والأجمة، وعنق الدابَّة. ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها"(١٥٧).

قال الزّمخشري في الكشاف في تفسير ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زكريّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ "قيل بنى لها زكريّا محرابًا في المسجد أيْ غرفة تصعد إليها بسلم. وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنّها وضعت في أشرف موضع في بيت المقدس، وقيل كانت مساجدهم تسمّى المحاريب"(١٥٨).

فمن خلال ما سبق يكون المحراب في قصّة زكريّا: مكان خاصّ داخل المسجد، يأخذ شكل غرفة مستقلّة أقامها زكريّا عليه السلام لمريم، وحرصًا منه فقد رفع الغرفة عن النّاس فلا يُصعد إليها إلا بسلم كمالًا في الخصوصية، وبعدًا عن تطفّل المتطفّلين، وأكثر سترًا لها، ومن أجل التفرّغ للعبادة. وفيه كانت المنّاجاة الخفيّة لربه ﴿هُنَالِكَ دَعَا زكريّا رَبَّهُ﴾ وفيه كانت البشارة" في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب"(١٥٩). وفي سورة مريم لم يحدّد مكان البشارة، لكنّنا علمنا من فحوى الكلام أنّ البشارة كانت وهو في المحراب من قوله ﷻ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾. بينما ذكر المكان في آل عمران، ولهذا الذّكر لطيفة، وهي أنّه لما ذُكرت البشارة بأكملها في آل عمران ناسب ذكر المكان لعظم البشارة وكمالها(١٦٠).

ثانيًا: نوع المكان.

ونوع مكان المحراب أنّه مكان مغلق لكنّه أليف، إذ موقف الشّخصيّة منه أنّها تحبّه وتألفه. ومن الغالب في النقّد السّرديّ أنّ الأماكن المرغوب فيها تتصف بالانفتاح، وغير المرغوبة تتصف بالانغلاق، ومن عادة الأماكن المغلقة أنّها غير أليفة، لأنّ فيها العزلة والحرمان من التّمتّع والتحرك كما تشاء النفس. ولكن في القصّة القرآنيّة، وفي قصّة زكريّا عليه السلام تغيّرت الدّلالة وانقلبت الرّؤية، فالمحراب مغلق ومحدود، لكنّه مكان محبوب وأليف، به تتصل مريم - عليها السلام - بالعالم الرباني، بعيدة عن صخب الحياة، لتعيش في راحة واطمئنان، فدلّت تلك الغرفة

(١٥٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، باب (حرب).

(١٥٧) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (حرب).

(١٥٨) الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١).

(١٥٩) الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١).

(١٦٠) انظر: فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص ١٢١.

على الألفة والأمان، رغم انغلاقها وصغر مساحتها. وقد تكوّنت من هذه الثنائية المكانية المتعارضة القاعدة الأساسية لسبر الواقع النّفسيّ، والبعد الاجتماعي لشخصيّة زكريّاﷺ تبعًا لتوظيفها وفق الاتّجاه العام للقصّة.

وذِكْر المحراب صريحًا غير ضمنيّ له دلالات واقعيّة ومرجعيّة، منها:

- فيه توجيه ذهن المتلقّي إلى تصوّره كجزء من واقع حقيقيّ لا متخيّل، فهذه السّمة تضفي على النّص طابع الصّدق، وتجعله نموذجًا من الواقع(١٦١). وهذه الواقعيّة لمكان المحراب لا تتوقّف عند رغبة إقناع المتلقّي بواقعيّته كما هو الحال في القصّة الفنّيّة فحسب، وإنّما أتى ذكره متسقًا ومقصد الخطاب الرّبانيّ من قصة زكريّاﷺ، الذي ينبئ عن غايّة دينيّة ومقصد عقدي لا يخفى، من أجلها تفرّعت القصّة عن القصّة الأمّ، واستقلت بغايتها، كما أنّ قصته أتت داعمة للقصّة الأمّ، قصة مريم وابنها عيسى - عليهما السلام – إذ المحراب احتوى الشّرارة الأولى لانطلاق قصّة زكريّاﷺ ، وفيه رأى عجائب ربه مع مريم - عليها السلام - وفيه دعاه بطلب الولد، وكانت فيه البشارة، وفيه كانت آيتها، ومنه خرج على قومه يدعوهم مشاركته في شكر هذه النّعمة.

-كما أنّه خالٍ من التّفاصيل والرّسم الهندسي والوصف الدّقيق، إذ أتى بوصفٍ عام، ومعرّف بـ(أل) التي هي للجنس، وهذا من أغراض القصّة القرآنيّة؛ إذ يأتي المكان متناسبًا وغرضها ومغزاها. وهذا أيضًا مستحب فنيًا " كلما أتقن الراوي المكان الهندسي حرم القارئ من نشاطه واستعمال خياله، لأنّ المكان يتحوّل إلى درس في الهندسة المعمارية"(١٦٢). فهو من الأمكنة المستقلّة في ذاتها، مكان ذو وصف محدّد بكلمة واحدة، فيكون الوصف نفسه دالًا على المعنى في ذاته دون حاجة إلى التّصريح بذلك المعنى(١٦٣).

-وقد تجلّت فيه الصّورة البصرية؛ لأنّه مكان احتضن الغريب والمفاجئ، وهو الرّزق، الذي أتى نكرة غير محدّد، مشيرًا إلى أنّه ليس من جنس واحد، بل من أجناس كثيرة، لأنّ النّكرة تقتضي الشّيوع والكثرة(١٦٤) لذا تعجّب منه وهو نبيّ: (أَنَّى لكِ هذا) "من أيْن لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدّنيا، وهو آتٍ في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك لا سبيل للداخل به إليك؟"(١٦٥).

---

(١٦١) الفضاء الروائي، شارل كريقل وآخرون، ص ٧٤.

(١٦٢) غاستون باشلار، جماليات المكان، ص ١٠.

(١٦٣) انظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص ٧٩.

(١٦٤) انظر: أبو حيان، البحر المحيط (٤٤٧/٢)

(١٦٥) الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١)

المطلب الثّالث: المكان وعلاقته بالشّخصيّة.

علاقة المكان بالشّخصيّات لا تنفكّ، فهي جليّة واضحة، فالبناء المكانيّ لا يتكوّن في النّص إلّا من خلال اختراق الأبطال له(١٦٦). وإذا فقد المكان الشّخصيّة فإنّه لا قيمة له، فبتحركها في حيزه يتكوّن المكان، ويظهر شكله الهندسي، وهو الذي يسبغ عليها هويتها أو يسلبها منها، كما أنّه يتحكّم في سلوكها ويستثيرها فيتعدّى تأثيره الخارجيّ إلى الدّاخليّ حيث أعماق التّكوين النّفسيّ للشّخصيّات. ولأنّ زكريّا عليه السلام هو نبيهم وسيدهم فإنّه يمضي أغلب وقته في المسجد قريبًا من المحراب الذي بناه لمريم، فالمكان موضع عملي يشير مباشرة إلى شخصيّة زكريّا، وكأنّ المحراب بيته، فيه يقوم بواجباته نحو ربه وقومه ومريم، و" بيت الإنسان امتداد لنفسه، إذا وصفت بيت الإنسان فقد وصفت الإنسان"(١٦٧). كذلك فإنّ المحراب يشير إلى المكانة الاجتماعيّة لشخصيّة زكريّا عليه السلام. فالمكان هنا "يعكس حقيقة الشّخصيّة"(١٦٨). وتتعامل الشّخصيّة مع المكان على مستويين: ماديّ ومعنويّ. فالماديّ، هو عدم استقرارها فيه بصفة لازمة، وإنّما تروح وتغدو إليه فتكون ضيفة على المكان، تباشره مباشرة الملاحظ أو المستكشف. وأمّا المعنويّ: ففيه الإيجابيّ والسلبيّ. الإيجابيّ، حيث يظل المكان في علاقته بالشّخصيّة عاملاً أساسيًا من عوامل الوجود وتحقيقه وتثبيته. والسلبيّ يسهم في تبعثر الشّخصيّة، ويتحوّل إلى عنوان لضياعها.

وقد تجسّد لزكريّا عليه السلام في المحراب المستوى الماديّ والمعنويّ الإيجابيّان، لذا فقد رشح المحراب بعدد من المعاني:

١: من تلك المعاني ما يسمّى بأنسنة المكان، وقدرته على التعبير عن المشاعر والأفكار التي لم ينطق بها زكريّا عليه السلام عندما رأى الرّزق. فالمحراب غرفة عليّة مستقلة مباركة، شاهد فيها زكريّا عليه السلام أشياء غير ثابتة تأتي وتروح وهو الرّزق، وهنا هاجت نفسه وتطلعت لأمل عاش بين جنباتها ردحًا من الزّمن، وفكّر في أنّها جاءت مريم - عليها السلام - أمّها بعد أنْ أسنّت، وأنّ الله تقبلها وجعلها من الصّالحات، فتحرك أمله لطلب الولد وقوي رجاؤه، وذلك منه على حال سِنٍّ ووهن عظم واشتعال شيب، ولخوفه الموالي من ورائه(١٦٩). فالمحراب هنا معاضد لاستبطان الشّخصيّة، ومشارك بسماتها وإيحاءاتها في تقدّم الحدث، وفي التعبير عن أحاسيس الشّخصية ورؤاها. فيبدو المكان وسيلة لتحقيق غاية من غايات القصّة القرآنيّة، والحيز الذي يحتضن عمليات التّفاعل بين الأنا والعالم(١٧٠). فهو مكان ضيّق لكنّه أفضى إلى ما يمكن أن نسمّيه بـ(الولادة الثانية) لزكريّا عليه السلام بالبشارة بالولد،

---

(١٦٦) انظر: حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص ٢٩.

(١٦٧) غاستون باشلار، جماليات المكان، ص ١٠.

(١٦٨) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٨٤.

(١٦٩) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (٢٦٦/٢).

(١٧٠) خالد حسين خالد، شعرية المكان في الرواية الجديدة، ص ٦٠.

ولمريم بالبشارة بعيسى - عليهما السلام - ليكون المحراب جزءًا من تجربة الشّخصيّات (زكريّا ومريم عليهما السلام) يضيق ويتسع تبعًا اللّحظة النّفسيّة التي مرا بها.

٢ : المعنى الرّمزيّ للمكان. فهو يحمل دلالة رمزيّة، وعلامة سيميائية لا تقف عند المكان كحيز جغرافيّ، وإنّما هو مكان خرج عن الإطار الفيزيائي المحدود إلى إطار مطلق مفتوح، قادر على إثارة الذّكريات لدى المتلقّي، بتذكره لمواقف سابقة في التّاريخ، ولمواقف من أحداثٍ وقعت زمن الرّسول ﷺ. فيبث فيه الإحساس بأنّه يحيا فيه. كذلك فإنّه مكان شهد فيضًا إلهيًا. ولم يزل أهل الخير يتوخّون الأمكنة بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصّالحة كذلك، وما هي إلا كالذّوات الصّالحة في أنّها محالُّ تجليات رضا الله [١٧١]. وهنا تتكثّف دلالة المحراب لتكشف عن عمق المكان وخصوصيّته وانفتاحه، فيبدو المكان" وكأنّه يتّجه إلى مختلف الأماكن، دون صعوبة، ويتحرك نحو أزمنة أخرى وعلى مختلف مستويات الحلم والذاكرة"[١٧٢]. وبذلك تتشظى دلالة المحراب في واقع قصة زكريّاﷺ لتتجاوز محدوديته الهندسية لتكون صالحة في كل زمان ومكان، مقترنة هذه الدلالة بزكريّاﷺ وبالمحراب وبأحداث القصّة، ليتحوّل المحراب إلى ثيمة سرديّة، وإلى رمزية مستقرة في أفئدة الصالحين، بأنّه رمز الطمأنينة وموطن الاستجابة، ومستقر جلب البركات. متضمنًا معاني عديدة، حتى ليُظن أنّ المكان في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كلّه [١٧٣].

المطلب الرّابع: ثنائية الزّمان والمكان.

هذه الثنائية، هي مكان يجمع عددًا من الأزمنة، فهو تأليف زمني متقن التأليف[١٧٤]. وهو ما جعل الغرفة، المحراب، المكان، تزدحم بأكثر من زمن، فهناك زمن حاضر، وهو حال زكريّاﷺ وأيضًا ما رآه، وزمن ماضي، وهو حاله في الماضي والحاضر وما يعرفه عن ربه، ولم أكن بدعائك رب شقيًا. وتظهر ثنائية المكان والزمان في السّياق من خلال ما يلي:

- النّداء الخفيّ كان في المحراب وفي الليل. والنّداء هو الدّعاء والرّغبة؛ أيْ ناجى ربه بذلك في محرابه. وأشار بالنّداء إلى الله ﷻ "لأنّه تصوّر نفسه بعيدًا منه بذنوبه وأحواله السّيئة كما يكون حال من يخاف عذابه"[١٧٥].

---

(١٧١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣/٢٤٢).

(١٧٢) غاستون باشلار، جماليات المكان، ص ٧٢.

(١٧٣) انظر: حسن بحراوى، بنية الشكل الروائى، ص ٣٣.

(١٧٤) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ص ٦٢.

(١٧٥) الراغب الأصفهاني مفردات ألفاظ القرآن، ٧٩٧.

- (كلمّا دخل عليها زكريّا المحراب) كلّ وقت دخول زكريّاء عليها وجد عندها رزقا(١٧٦). و(كلمّا) تدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها، ودلت الآية على وجود الرّزق عندها كل وقت يدخل عليها(١٧٧).

- (أنّى) سؤال عن الكيفيّة، وعن المكان، وعن الزمان. وقد وظّف (أنّى) مكان (كيف) لبيان شدّة تعجّبه من إجابة الحق ﷻ لطلبه(١٧٨).

- (هنالك) أيْ في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت. فقد يستعار (هنا وثم وحيث) للزمان(١٧٩). فقوله (هنالك) إنْ حملناه على المكان فهو جائز، أَيْ في ذلك المكان الذي كان قاعدًا فيه عند مريم - عليها السَّلام - وشاهد تلك الكرامات دعا ربَّه، وإنْ حملناه على الزَّمان فهو أيْضًا جائز، يعني في ذلك الوقت دعا ربَّه(١٨٠).

-تتابع حركة زكريّا عليه السلام في هذا الحيز المبارك -الدخول المتكرّر عليها ثم المناجاة ثم الخروج إلى قومه - ساهم في التطوّر الزّمنيّ للقصّة، مما أنشأ تحفيزًا سرديًا بفعل هذه الحركة، فالحركة فيه تشير إلى فعل؛ وأيْ فعل!، إنه مشاهدة فيوض الله على مريم، ثم فعل الاتّصال مع الرب ﷻ ثم البشارة، ثم فعل الخروج على قومه. والفعل مقترن بزمن يعيّن وقوعه ويرصد حركته. فالمكان المدرك بالحس احتوى الزمن المدرك بالعقل والذات. فكل حركة لزكريّا عليه السلام في المكان من خلال الزّمن أتت مؤشرًا بنائيًا مهّدت لما بعدها من حدث حتّى نهاية المشهد القصصيّ.

وقد اتخذ فضاء المكان (المحراب) طابعًا تاريخيًا في ارتباطه بعهد مضى واستمراره حتى الحاضر إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، فيكون المكان علامةً في امتداد سياق الزّمن(١٨١).

---

(١٧٦) الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١).

(١٧٧) انظر: أبو حيان، البحر المحيط (٤٤٣/٢).

(١٧٨) انظر: المصدر السابق (٤٤٣/٢).

(١٧٩) انظر: الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١).

(١٨٠) الرازي، مفاتيح الغيب (٢٠٩/٨).

(١٨١) جمع ابن عاشور تطوّر دلالة مسمى المحراب عند قوله تعالى: (يعملون له ما يشاء من محاريب) سورة سبأ:١٣ " والمحاريب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنّه يرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على القصر الحصين. وقد سموا قصور غمدان في اليمن محاريب غمدان. وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية. ثم أطلق المحراب على الذي يختلى فيه للعبادة فهو بمنزلة المسجد الخاص، قال ﷻ (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب)... وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة، قال تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) في سورة ص". ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦١/٢٣).

الخاتمة:

وبعد هذا المكوث المبارك في مقام الجمال تحت ظلال هذه القصّة القرآنيّة أسفر البحث عن النّتائج التّالية:

- بناء قصّة زكريّا﵇ اشتمل على نوعين: البناء المتتابع في سورة مريم، وبناء التّضمين في سورة آل عمران. وهذا التنوّع في بناء قصّته ﵇ هو تنوّع في العرض، كلّ عرض أتى متمّمًا لما ذُكر منها في موطن آخر، تبعًا لما يقضيه سياق القصّة، وموضوع السّورة الإطاريّة للقصّة بما يحقّق التّناسق والجمال الفنيّ.

-هذا التّناسق والجمال الفنيّ أنشأ توافقًا بديعًا، وتكاملًا معجزًا، الذي ينفي أنْ يكون في القصّة - في ثلاث السور - تكرار خالص، إذ ثمّة عناصر سرديّة تُضْمر في قصّة وتبرز في القصّة الأخرى. فهو هو تكامل والتئام لا يخلُّ بنظام السّرد ولا بمتطلبات الجماليّة.

-في بناء التّضمين في سورة آل عمران أتى التّفريع الحكائي في قصة مريم - عليها السلام - أتى داعمًا لشرط مؤثّر لدى نقّاد النظريّة السّرديّة، وهو أنّ ظهور أيّ قصّة جديدة مرتبط بظهور شخصيّة جديدة في فضاء السّرد. فبذلك يكون السّرد القصصيّ القرآنيّ قد سبق التنظير النّقديّ للمدرسة السّرديّة وتطبيقاتها.

-وظّفت قصّة زكريّا﵇ عنصر المفاجأة بفاعليّة محكمة، وهي مفاجأة ذات سر غير غامض، وعقدة بسيطة غير معقدة ولا مركبة. وهو في بداية قصة زكريّا - في آل عمران - كانت الانطلاقة القويّة للقصّة، وفي نهاية القصّة -في سورة مريم - استكمل بناء الحدث، وجعلها تصل إلى النّهاية وهي في أوج إثارتها وتماسكها. وقد توقّف البحث عند اللمحات البلاغيّة والأسلوبية التي تجسّدت في إجراءات تصوير مظاهر هذا العنصر البنائيّ.

-الشّخصيّة الرّئيسة البشريّة في قصّة زكريّا، هي زكريّا﵇ نفسها، وقد أتت رئيسة ونامية ومتكرّرة ومرجعيّة. وهي أسّ القصّة وكنهها وجسمها والمحرّكة لأحداثها، وأنّها العمود الفقريّ للقصّة، وموضوع القضيّة السّرديّة. وقد تجلّت شخصيّة زكريّا﵇ رويدًا رويدًا من خلال السّياق.

-الدّعاء هو أسّ القصّة الموضوعيّ ومرتكزها. وقد كشف عن جوانب متعدّدة من شخصيّته ﵇، جوانب خارجيّة وداخليّة، اجتماعيّة ونفسيّة بأسلوب بلاغيّ متفرّد.

-في الشّخصيّة كعامل من عوامل القصّة، أنّ المساعد (ﷻ) للمرسل إليه زكريّا﵇ ليس بحاجة إلى مساعد ولا يستطيع مُعيقٌ أنْ يعجزه، وإنّما هو التّحقّق الكامل والقدرة المطلقة. وهذا يلغي طرفين أساسين في بنية النموذج العاملي (المساعد والمعيق) الخاص بالحق ﷻ، وفي ذلك تميّز فريد للقصّة القرآنيّة، ثم السّرد القرآني عامة.

- قصّة زكريّا﵇ حققت المفارقة الزّمنيّة، مع أنّ زمنها زمن واقعيّ تاريخيّ لا تخييليّ، ومع حضور التّاريخيّة الواقعيّة إلّا أنّ أحداثها ليست محشوّة بالتفاصيل، ولا متقيّدة بالتسلسل السّرديّ التّاريخيّ الصارم؛ لأنّ التّاريخ فيها لم يقصد لذاته، وإنّما لاستخلاص العبرة منه، وهي بذلك تختلف عن الكتب السماوية الأخرى مثل (الإنجيل والتوراة).

-الحذف في قصّة زكريّاعليه السلام هو من الحذف الضّمنيّ، الذي لا يُصرَّح بوجوده في النص، وإنّما يمكن للقارئ الاستدلال عليه من خلال ثغرةٍ في التّسلسل الزّمنيّ أو انحلالٍ لاستمراريّة السّرد. وقد أشار نقّاد السّرديّة إلى شرط مهم في هذا الحذف، بأنّه يجب على الحذف ألّا يضعف قدرة القارئ على فهم القول المحذوف، أيْ أنْ يكون بالإمكان معرفة الوحدات المحذوفة انطلاقًا من الوحدات المذكورة، وقد توافر هذا الشّرط في القصّ القرآنيّ قبل أنّ تظهر السّرديّة وتنظيراتها.

-في زكريّاعليه السلام تغيّرت الدلالة وانقلبت الرؤية في خصوصية المكان، فالمحراب مغلق ومحدود، لكنّه مكان محبوب وأليف، وقد تكوّنت من هذه الثنائية المكانية المتعارضة القاعدة الأساسية لسبر الواقع النفسي، والبعد الاجتماعي لشخصيّة زكريّاعليه السلام تبعًا لتوظيفها وفق الاتّجاه العام للقصّة.

-في علاقة الشّخصيّة بالمكان (المحراب) ظهر المعنى الرّمزيّ للمكان، فهو يحمل دلالة رمزيّة، وعلامة سيميائيّة لا تقف عند المكان كحيّز جغرافيّ، وإنّما هو مكان خرج عن الإطار الفيزيائيّ المحدود إلى إطار مطلق مفتوح، قادر على إثارة الذكريات لدى المتلقّي.

-لقد تعاضدت الرؤية السّرّيّة والرؤية البلاغيّة في رصد مواطن الجمال في هذه القصّة العظيمة، وفي تجلية مظاهر الرّوعة في التّصوير، وحسن البلاغة في التّعبير، وبراعة اختلاف النّظم فيها، وتكوّن جماليّات النّهج القصصيّ لها، التي جسّدت عظيم العِبَر والعظات فيها. فكلّ جملة منها بل كلّ كلمة من كلماتها تحتوي على لطائف، وليس في آي القرآن المجيد حرف إلا تحته سرّ ومصلحة فضلًا عمّا وراء ذلك، والكلام في تقرير تلك اللطائف الإجماليّة، وما يتلوها من الأسرار التفصيليّة، مقرّر في معرفة حدّ الكلام وأصله، وأنّ كلّ مرتبة من مراتب الإجمال أو البسط متروك في الآي وسياقه(١٨٢).

(١٨٢) انظر: العلوي، الطراز (٢٣٢/٣).

ثبت المصادر والمراجع:

المصدر:

- القرآن الكريم.

المراجع:

[١] إبراهيم، عبد الله، السّرديّة العربيّة، بحث في البنيّة السّرديّة. المركز الثّقافي، بيروت، ١٩٩٢م.

[٢] إبراهيم، عبد الله، المتخيّل السّرديّ: مقاربات نقديّة في التّناص والرؤى والدّلالة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.

[٣] إبراهيم، نبيلة، فنّ القصّ في النظريّة والتطبيّق. مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

[٤] إدريس الكريوي، بلاغة السّرد في الروايّة العربيّة، منشورات ضفاف، بيروت، ٢٠١٤ م.

[٥] إسماعيل، عزّ الدّين، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

[٦] الأصفهاني، الحسن بن محمد، المعروف الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - الدار الشامية، دمشق - بيروت ط٤، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

[٧] الآلوسي، محمود أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١٥ه.

[٨] باشلار، غاستون، جماليّات المكان، ت: غالب هالسا، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط٤، ١٩٩٦م.

[٩] بحراوي، حسن، بنية الشّكل الرّوائي، المركز الثقافي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

[١٠] برنس، جيرالد، المصطلح السّردي، ت: عابد خزندار. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

[١١] بنكراد، سعيد، سيمولوجيّة الشّخصيّة السّرديّة (رواية الشراع والعاصفة لحنا مينة نموذجًا)، دار مجدلاوي للطباعة والنشر، ط١، عمّان، ٢٠٠٣م.

[١٢] تودوروف، تزفيطان، الشّعرية. ت: شكري المبخوت وآخرون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٠م.

[١٣] تودوروف، تزفيطان، مفاهيم سرديّة، ت: عبد الرحمن مزيان، منشورات دار الاختلاف، الرباط، ط١، ٢٠٠٥م.

[١٤] تودوروف، تزفيطان، مفهوم الأدب، ت: منذر عياشي. دار الذاكرة، حمص، سوريا، ١٩٩١م.

[١٥] الجرجانيّ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

[١٦] جينيت، جيرار، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ت: محمد معتصم وآخرون، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.

[١٧] جينيت، جيرار، عودة إلى خطاب الحكاية، ت: محمد معتصم. المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

[١٨] الحواري، خلود، قصّة زكريّا في القرآن (دراسة موضوعية)، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة الخامسة، العدد ١١، ١٤٣٧ه.

[١٩] أبو حيّان، محمد بن يوسف الأندلسيّ، البحر المحيط، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ١٤٢٠هـ.

[٢٠] خالد، خالد حسين، شعريّة المكان في الروايّة الجديدة، كتاب الرياض، العدد (٨٣)، ٢٠٠٠م.

[٢١] الخالديّ، صلاح، الإعجاز البيانيّ ودلائل مصدره الرّبانيّ، دار عمار، عمّان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

[٢٢] الرّازي، فخر الدين محمد بن عمر التّميمي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

[٢٣] الزّركشي، محمد بن عبد الله بن بهارد، أبو عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

[٢٤] الزّمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

[٢٥] زيتوني، لطفي، معجم مصطلحات نقد الروايّة، دار لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ٢٠٠٢م.

[٢٦] أبو السّعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.

[٢٧] شيخ أمين، بكري، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م.

[٢٨] ابن عاشور، محمد الطّاهر بن محمد التّونسي، التّحرير والتّنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

[٢٩] العاني، شجاع مسلم، البناء الفني في الرواية العربية في العراق، إطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٧م.

[٣٠] عباس، فضل، قصص القرآن، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، ط٣، ١٤٣٠ - ٢٠١٠م.

[٣١] عبد المطلب، محمّد، بلاغة السّرد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

[٣٢] ابن عطيّة، عبد الحق بن غالب الأندلسيّ، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، تحقيق، عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

[٣٣] العلويّ، يحيى بن حمزة بن علي الحسيني، الطرّاز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.

[٣٤] العيد، يمنى، تقنيات السّرد في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، لبنان، ط٢، ١٩٩٩م.

[٣٥] فاضل السامرائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، شركة العاتك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.

[٣٦] فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبيّة، المؤسّسة العرّبية للنّاشرين المتّحدين، صفاقس، تونس، ١٩٨٦م

[٣٧] فورستر، إدوارد مورغان، أركان الرّواية. ت: موسى عاصي. جروس بروس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٤م.

[٣٨] الفيروزآباديّ، مجد الدّين أبو طاهر، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ.

[٣٩] القاضيّ، محمّد، معجم السّرديات، الرّابطة الدّوليّة للنّاشرين المستقلّين، ودار محمد علي وآخرون، تونس، ٢٠١٠م.

[٤٠] القرطبي، محمّد بن أحمد الأنصاريّ الخزرجيّ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

[٤١] قطب، سيّد، التّصوير الفنيّ في القرآن، دار الشروق، بيروت - القاهرة، ط١٦، ٢٠٠٢م.

[٤٢] قطب، سيّد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت - القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

[٤٣] ابن القيّم، محمّد بن أبي بكر، إعلام الموقّعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ -١٩٩١م.

[٤٤] ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشيّ، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

[٤٥] كريقل، شارل، الفضاء الروائيّ، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م.

[٤٦] لحمداني، حميد، بنية النّصّ السّرديّ من منظور النّقد الأدبيّ. المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٣، ٢٠٠٠م.

[٤٧] مرتاض، عبد الملك، في نظريّة الرّواية، بحث في تقنيات السّرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، العدد ٢٤٠، ١٩٩٨م.

[٤٨] ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي أبو الفضل، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤ه.

[٤٩] موير، أودين، بناء الرّواية. ت: إبراهيم الصيرفي، دار الجيل، مصر، د. ت

[٥٠] نجم، يوسف، فنّ القصّة، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

[٥١] نظريّة السّرد من وجهة النّظر إلى التبئير، مجموعة من النقاد، ت: مصطفى ناجي، منشورات الحوار الأكاديمي، دار الخطابي للطباعة، الدار البيضاء، ١٩٨٩م.

[٥٢] نظريّة السّرد: مجموعة مؤلفين، كريستيان أنجليت وجان هيرمان، ت: ناجي مصطفى، ط١، منشورات الحوار، المغرب، ١٩٨٩م.

[٥٣] نظريّة المنهج الشّكليّ، نصوص الشّكلانيين الروس. ت: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط العربية الأولى، ١٩٨٢م.

[٥٤] نقرة، التّهامي، سيكولوجيّة القصّة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٤م.

[٥٥] النّيسابوري، الحسن بن محمد بن حسين القمي، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

[٥٦] الواد، حسين، البنية القصصيّة في رسالة الغفران، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط٣، د.ت.

[٥٧] ويليك، رينيه، نظريّة الأدب. ت: محييّ الدّين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

[٥٨] يوسف، رياض، أدبيّة السّرد القرآني، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠٠٩م.

□

Aesthetics of narration in the story of

Zakariya (peace be upon him) in the Quran

Dr. Mansour Abdulaziz Almehawes
Assistant Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Education in Zulfi, University of Majma'a

Abstract: This research aims at observing the aesthetics of narration in the story of Zakariya and the procedures of its formation and production according to the modern narrative mechanisms, and what is requiring to exposure to its rhetorical and miraculous style, which contributes to the distinction of the Quranic story from the literary story in content, goals and aims, construction, of events, characters, time, and place; and contributing to distinguish the story of Zakariya from its equivalents of Quranic stories. The search set forth of a unique narrative, aesthetic, and stylistic rhetoric characteristics which are distinguishing the story of Zakariya, and shows that it has an eternal aesthetic, and reveals that the Quranic story precedes in establishing of many of the theoretical and applied frameworks of the narrative stories.
Keywords: Aesthetics of narration, Narration, Quranic story, Zakariya (peace be upon him)